أعلام العرب

٥٥

الكندي المؤرخ
أبو عمر محمد بن يوسف المصري
وكتابه الولاة والقضاة

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد – كلية الآداب – جامعة القاهرة

الدار المصرية للتأليف والترجمة

القسم الأول
الكندي المؤرخ

١

كندة قبيلة المؤرخ

لم تكن كندة قبيلة خاملة الذكر بين قبائل شعب كهلان أحد فروع الشجرة القحطانية العظيمة . ورغم أن علماء العربية الجنوبية لم يعثروا على اسمها بين القبائل التى ورد ذكرها فى النقوش اليمنية القديمة وأن اسمها لم يرد فى مؤلفات المؤرخين الاغريق والرومان ، لكن صيتها قد ذاع فى القرن الرابع الميلادى ، [1] حين عمل التبابعة ملوك حمير المتأخرين على بسط نفوذهم على طرق التجارة التى تخترق نجدا ماضية الى العراق ، فأطلقوا يد كندة وملكها حجر (آكل المرار) ليحكم باسم ملوك حمير ، وتدين له ولقبيلته بالطاعة قبائل كثيرة كأسد وبكر وتغلب وقيس وكنانة وغيرها ، تمشى هذه القبائل الخاضعة فى ركابهم تدفع الاتاوة وتستقبل الجباة الكنديين الذين يرفعون علم حمير وينشرون نفوذها .

ثم عصفت الأحداث بملك العرب الجنوبيين وتداعى النظام السياسى الذى أقامه الحميريون فى شبه جزيرة العرب ، وأصبحت بلاد اليمن مسرحا لصراع دموى عنيف بين المسيحية

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٣ ص ١٣٧

واليهــودية . وأهملت المشروعات الزراعية وبدأ ســد مأرب يتداعى وضاعت السيطرة على تجــارة البحر الأحمر الغنيــة وخرجت القبائل العــربية الشمالية عن طاعة ملوك اليمن ، وحاربتهم فى وقائع مشهورة ثم هفت الأطماع الخارجية الى بلاد العرب ، فغزا الأحباش بلاد اليمن وســقط ملك حمير ، ومضى الأحباش يوطدون نفوذهم فى بلاد العرب .

ودالت دولة كندة فى غمرة هذه العواصف العاتية التى هبت على شبه الجزيرة العربية ، ولم تجد مفرا من أن تهاجر صوب الجنوب الى بلاد حضرموت . ويذكر الرواة أن نحوا من ثلاثين ألفا من مهاجرى كندة استقر بهم المقام فى حضرموت فى الوقت الذى ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وظلت كندة تعيش فى مهجرها ذاك بعشائرها الشهيرة من السكاسك والسكون وبريح وأشرافهــا من بنى تجيب حتى ظهر الاسلام .

ثم ظهر الاسلام وقامت الدولة العربية الاسلامية بالمدينة . واذا بهذه القبائل تكتشف نفسها فجأة ، بعد أن انضمت الى الحلف العظيم الذى أقامه الرسول عليه الصــلاة والسلام ، وجمع به شمل العرب كلهم فى كيان سياسى واحد . وبدأت الجزيرة العربية تموج بطاقة روحية عظيمة وطاقة بشرية كبرى ، وبدأت تحتك بدولتى فارس وبيزنطة . وخرجت طلائع الفاتحين العــرب تغزو مشارف الشام والعراق ، واذا بالقبائل اليمانية لا تتخلف عن الركب ، بل كانت فى مقدمة الحركة الزاحفة ،

كانوا دائما قوات الطليعة الزاحفة فى كل فتح ، فكأنهم أرادوا أن يعوضوا تخلفهم عن الزعامة السياسية بأمجاد جديدة يتوجون بها هاماتهم ، واذا باليمانية سباقين الى تعمير المدن وتمصير الأمصار والأخذ بأسباب الحضارة الجديدة ، وأكبوا الحياة الثقافية الوليدة ، ثم سبحوا على سطحها ، وكانت منهم الطليعة الأولى من رواد النهضة الفكرية التى فجرها الاسلام [1] .

ومن ثم اندفعت كندة بعشائرها وبطونها فى معركة الفتح . اشترك منها مقاتلة فى معارك فارس ومعارك مصر ، ولما انتهت موجة الفتح الأولى وبدأ عهد الاستقرار ، استقر مهاجرون من كندة فى بلاد الشام . فقد دخل السكاسك بلاد الشام زمن الخليفة عمر ونزلوا وادى السكاسك بالأردن وهاجر البعض من كندة الى برقة وأقاموا فيها .

وارتفع شأن كندة فى العصر الأموى وكان لأبنائها الصدارة فى كل بلد انتقلوا اليه حتى لقد صاح هشام بن عبد الملك الخليفة قائلا : « يا لكندة » عندما لاحظ أن سادة فلسطين وحمص والجزيرة ومصر كلهم من أشراف كندة .

وحفل تاريخ مصر فى صدر الاسلام بعدد كبير من أهل كندة من رجال الدولة والحرب ، وتركت كندة أثرا كبيرا فى مختلف نواحى الحياة المصرية وظلوا فى مصر يحافظون على تقاليدهم الأرستوقراطية العربية .

---

(1) منهم أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى الفيلسوف .
الفهرست ص ٣٥٧

فكان منهم حجر بن عدى رسول محمد بن أبى بكر أمير مصر سنة ٣٧ هـ الى الثوار من أنصار عثمان الذين اعتصموا بخربتا [١] ، وبرز منهم فى العصر الأموى الحديجيون نسبة الى معاوية بن حديج ، وكانت أسرتهم من أهم أسر الأشراف فى المجتمع المصرى طوال العصر الأموى ، فقد ظهر بعد عميدهم معاوية ابنه عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٥ هـ وكان من كبار رجال الدولة ، وولى عبد الواحد بن عبد الرحمن قضاء مصر ، وكان من أندر القضاة الذين عرفهم التاريخ فقد ولى القضاء وعمره خمس وعشرون سنة .

ولم يجهل العباسيون قدر كندة عامة والحديجيون خاصة فقد كانوا يعلمون قدر رجال هذه الأسرة الذين كانوا من أكابر المصريين ابان الحكم الأموى فأبقوا على نفـوذهم وأعطوهم الأمان لما دخلوا مصر سنة ١٣٢ هـ . وقد ظلوا على حالهم فى الدولة العباسية يلون المناصب الكبرى فى كفاية واخلاص . وتولى امرة مصر عبد الله بن عبد الرحمن الحديجى (١٥٢ — ١٥٥ هـ) [٢] بعد أن تقلب فى مناصب الشرطة ابتداء من سنة ١١٩ هـ وأخمد الحركة العلوية التى تزعمها خالد بن سـعيد الصدفى فى الفسطاط سنة ١٤٥ هـ . وكان أخوهما محمد بن

(١) الكندى : الولاة ص ٢٨

(٢) الكندى : الولاة ص ٨١ ، ٩٣ ، ٩٨

عبد الرحمن من أشراف مصر وقوادها وكبار موظفيها فقد تولى امرة مصر سنة ١٥٥ هـ [1] .

ولعب هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن دورا هاما فى قضية أهل الحرس (١٨٥ ــ ١٩٤ هـ) وفى الدعوة الى خلع الأمين . وكان أخوه محمد بن عبد الله صاحب دربين بالفسطاط وضيعة بالجيزة .

وبدأ هبيرة بن هشام بن عبد الله حياته العامة بالاشتراك مع أبيه فى الدعوة الى خلع الأمين ، ثم ولى الشرطة ثلاث مرات . وولى حديج بن عبد الواحد الاسكندرية سنة ١٩٨ هـ . ووليها عمر بن هلال واشترك فى الحوادث العنيفة التى قام بها الأندلسيون وقتذاك . أما معاوية بن عبد الواحد فولى الاسكندرية (٢٠٢ ــ ٢٠٣ هـ) ثم كان الرئيس العام لأهلها فى ثورة أسفل الأرض سنة ٢١٦ هـ وولى معاوية بن معاوية بن نعيم الشرطة مرتين سنة ٢٢٦ ، ٢٢٨ هـ .

ولم يتفوق أبناء كندة فى مضمار السياسة والحرب فحسب بل أسهموا فى الحركة الفكرية بنصيب كبير ويذكر الرواة منهم أبا القاسم بن عبد الله البريحى من التابعين ، أدرك عبد الله بن عمرو بن العاص ثم غرفة بن الحارث الصحابى الذى شهد فتح مصر وسكنها وحدث بها . ومنهم كذلك جعفر بن ربيعة زميل يزيد بن أبى حبيب فى النظر فى الفتيا فى مصر . وكان أبناء

---

(1) الكندى : الولاة ص ١١٦ ــ ١١٨

كندة عامة يأتون الى مصر ويقيمون بها اقامة مؤقتة أو دائمة فولى اسماعيل بن اليسع الكوفى [1] قضاء مصر (١٦٤ — ١٦٧هـ) كما نزل حسان بن عبد الله الواسطى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وحدث بها حتى وفاته .

هكذا كان الكنديون فى مصر ما بين قائد وفقيه وقاض ومحدث ولم يكن مواليهم بأقل منهم ، وظل أثر كندة بمصر قويا حتى القرن الثالث الهجرى . وشواهد القبور تؤيد ذلك بالنسبة الى القرنين الثانى والثالث الهجرى .

❋ ❋ ❋

(٢)

« تجيب » عشـــيرة المؤرخ

تعنينا من بين عشائر كندة العـديدة عشيرة واحدة دون سواها ، من أشرف عشائر السكون وأكثرها نفوذا وأبعدها صيتا ، تلك هى عشـيرة تجيب التى أنجبت مؤرخنا أبا عمر محمد بن يوسف .

واذا كنا قد تحدثنا بصـفة عامة عن دور كندة فى الحياة الاسلامية عامة وفى تاريخ مصر الاسلامية خاصة فانه ينبغى أن نعطى شيئا من التركيز على هذه العشيرة وأن نوضح الدور

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٧١ — ٣٧٣

الذى قامت به فى حياة البلاد حتى أتيح لصاحبنا أن يولد فى حجرها عام ٢٨٣ هـ .

كانت تجيب من أسرع عشـائر كنـدة استجابة للاسلام حتى لقد وصفها الرسـول بقوله : « أجابت الله ورسوله » [١] ، ثم اشتركت فى أحـداث الدولة العربيـة بعد وفاة النبى ، واشترك فرسـانها فى فتوح فارس ثم انضـموا الى جيش عمرو بن العاص وخاضوا معارك الزحف من القرما الى بلبيس ، واشتركوا فى حصار حصن بابليون ، ويبدو أنهم قاموا بنصيب كبير فى الاستيلاء على الحصن الأمر الذى دعا شاعرها الى أن يفخر بذلك قائلا [٢] :

وبابليـون قد سـعدنا بفتحها
وحزنا لعمـر الله فيئا ومغنمـا

ورافقوا الزحف العربى نحو الاسكندرية ، وشهدوا مواقع نقيوس والكريون ووقفوا حيال أسوار الاسكندرية وخاضوا معركتها .

ويبدو أن التجيبين بعد انتهاء معارك الفتح اختاروا أماكن خاصة ينزلون بها ويسـتقرون فيها مستقلين عن عشائر كندة الأخرى فقد استقرت بعض عشائر كندة ــ على نحو ما ذكرنا ــ فى البصرة أو الشام الا أنه لم ترد اشارة الى استقرار تجيب فى هذه البلاد . انما استقرت غالبية التجيبين فى مصر وان كان بعض

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٨
(٢) الخطط جـ ٤ ص ٥

منهم قد استقر فى جبل برقة الغربى مع غيرهم من بطون اليمانية ، ورحل قوم منهم الى الأندلس ليظهروا فى أحداث عصر الخلافة وملوك الطوائف .

على كل حال اتخذت غالبية التجيبية مصر داراً ومقاما واختطوا بالفسطاط ، وممن اختط منهم قبيسة بن كلثوم الذى جاء مع جيش الفتح فى عدد كبير من أهله وعبيده وخيله . وكانت خطته بجوار حصن بابليون ولكنه تنازل عن هذه الخطة دون مقابل ليبنى المسلمون فيها مسجدهم الجامع . وكانت لهم مرحلة باسمهم فى الطريق الى الفسطاط . وعاشوا فى مصر فى صدر عصر الراشدين ، كما كانت قبائل العرب تحيا فى ذلك الوقت المبكر ، وكانت حياتهم قسمة بين الحاضرة وما فيها من نفوذ سياسى وبين مناطق الريف المصرى حيث ترعى ابلهم وخيلهم وسائمتهم . وذكر المؤرخون أنهم ملكوا مرتبعين : الأول كان لمعظمهم فى (تمى الأمديد) وبسطة وأوسيم ، والثانى فى البدتون (بمديرية البحيرة) . والذى يلفت النظر تعدد أماكن ارتياع تجيب وتباعدها الأمر الذى يدل على كثرة عدد بطونها ووفرة ثروتهم من الابل والخيل [1] .

وانفعلت « تجيب » شأنها شأن القبائل العربية الأخرى بأحداث عهد الخليفة عثمان وشهدت نذر الفتنة تلوح فى آخر عهده ، ثم شهدت ريحها بعد مصرعه تعصف بالحياة الاسلامية ليمتد أثرها الى كل مكان استقر به العرب .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٤٢

ويبدو أن أغلب بنى تجيب ثاروا على عثمان شأنهم شأن معظم القبائل العربية فى مصر متأثرين بدعاية الجماعة التى كان ينتمى اليها ابن أبى حذيفة ، وانتهى الأمر بأهل مصر أن أصبحوا من شيعة على ، فيما عدا أنصار عثمان الذين اعتصموا بخربتا .

وكان كنانة بن بشر التجيبى [1] من أبرز الثائرين على عثمان وأحد كبار زعماء الفتنة ، فكان رأس الشيعة الأولى وأحد القواد الستة لذلك الجيش الذى سيره ابن أبى حذيفة الى عثمان . وفى زقاق زويلة بالفسطاط يقع المسجد الذى قيل أن تجيبا تعاقدت فيه على قتل عثمان ، كما وقف فريق منهم موقفا سلبيا من اعتداء ابن أبى حذيفة على ضيفهم سعد بن أبى وقاص ، وانحازت قلة منهم الى عثمان فكانوا من شيعته ، منهم مسلمة بن مخرمة الذى أبى أن يأخذ عطاء من ابن أبى حذيفة لما اغتصب حكم مصر وذهب الى عثمان رسولا من قبل أنصاره بمصر ليخبروه بأمرهم وبصنيع ابن أبى حذيفة ومن أنصار عثمان أيضا مقسم بن بجيرة القشيرى .

واذا بالمراجع تتحدث عن أثر التجيبية فى العصر الأموى ومشاركتهم فى الأحداث الكبيرة التى شهدها ذلك العصر ، فقد تمكن معاوية من انتزاع مصر من سلطان على وانتقم من أهلها وقتل ثمانين من تجيب ، والأرجح أن تجيبا ظلت فى معظمها محتفظة بميولها العلوية وتأثر بعض رجالها بفكرة الخوارج التى بدأت تتسرب بعد ذلك الى مصر . واستردت تجيب رغم ذلك

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٧ ــ ٢٠

أهميتها فى الفترة الواقعة بين سنتى ٤٦ ، ٦٢ هـ ، ولا يمكن أن يغفل شأن مثل هذه العشيرة كبيرة العدد واسعة السلطان . ومما يدل على ذلك أنها كانت قريبة الى ألسنة الشعراء حين تحدثوا عن مصر وقد ذكرها عمران بن خطاب وهو يرحب بالخوارج من أهل العراق الذين نفاهم زياد الى مصر (٤٥ ـ ٥٣ هـ) ، ذكرها جميل وهو يتحدث عن بثينة حين سكنت مصر مجاورة بمسكنها تجيبا . كما أن عتبة بن أبى سفيان قد استخلف منها عبد الله بن قيس على مصر فاشتد على أهلها . وليس أدل على شعور الولاة الأمويين بمكانتها وأهميتها ممـا كان من اعفاء مسلمة بن مخلد اياها من الأمر الذى أصدره سنة ٥٣ هـ الى القبائل بابتناء منارات المساجد .

ولم يكد ابن الزبير يظهـر حتى استعلن خـوارج مصر المستترون وانضموا الى ابن الزبير ، واشتركت قبائل مصر ومن بينها تجيب مع ابن جحدم والى مصر من قبل ابن الزبير ضد مروان بن الحكم . ولكن انتصار مروان أخلى السبيل للعثمانيين فغلبوا على مصر . ويبدو أن تجيبا سايرت الوضع الجديد وان كان فريق قد ظل محتفظا بوضعه الجديد . والغريب أن ميول بنى تجيب بعد ذلك قد تقلبت . فكثيرون منهم آزروا الأمويين بعد مروان وساروا فى ركابهم وتولوا وظائفهم ولعبوا دورا كبيرا فى سياستهم ، وفريق آخر كان يتربص الفرص المواتية ولا يكاد يرى نذر ثورة الا واشترك فيها الأمر الذى يدل على الوزن الكبير الذى كان لتجيب فى أحداث البلاد سلمها وحربها .

ومن التجيبية الذين والوا بنى أمية وأفادوا منهم عبدالرحمن ابن حسان صاحب شرطة عبد العزيز بن مروان وزياد بن حناطة (ت . ٧٥ هـ) وكان من شيعة بنى أمية وكبار موظفيهم . وكان له قصر باسمه فى خطة تجيب . وكان بنو عتاهية السعديون من كبار أنصار بنى أمية ، بل كان عبد الرحمن بن يحنس قاتل ابن الزبير من مواليهم [1] ، ومنهم حسان بن عتاهية الصغير الذى ولى مصر عام ١٢٧ هـ ، وقيس بن الأشعث من كبار الموظفين بمصر سنة ١٢٤ هـ .

وثمة فريق آخر من التجيبية اختاروا خط الثورة على الأمويين ومضى فيها حتى غايتها ، فقد اشتركوا فى ثورة الاسكندرية على قرة بن شريك عام ٩١ هـ ، وتزعم هذه الثورة ابن أبى أرطأة أحد سراة الاسكندرية والمهاجر بن أبى المثنى التجيبى ، ولما قتل الوالى الوليد بن رفاعة وهيبا الشارى سنة ١١٧ هـ ثار القراء عليه وحاربوه بزعامة واحد من تجيب هو شريح بن صفوان وكان من ضحايا هذه الثورة أبو زرعة المحدث مولى تجيب ، وفى سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ بايع بعض التجيبية الثائر الاباضى عبد الله بن يحيى طالب الحق . واذا بالحوليات تظهر استمرار نشاط التجيبية فى الأحداث السياسية فى مصر فى العصر العباسى الأول ، اذ تذكر منهم العباس بن عبد الرحمن صاحب شرطة مصر سنة ١٥٥ هـ وسالم بن غيلان (١٥٣ هـ) من أشهر

(١) الكندى : الولاة ص ٥١ ، ٣٢١

قواد البحرية المصرية وعبد الله بن المهاجر الذى أخمد ثورة القبط عام ١٥٦ هـ ، وخالد بن الوليد (١٦٨ هـ) الذى كان من رجال الدولة البارزين ويوسف بن نصير (١٦٨ هـ) [1] من قواد دحية الثائر الأموى . واذا بفـريق من تجيب ينضم الى السرى بن الحكم سنة ٢٠٢ هـ ضد الثائرين على المأمون وولى عهده العلوى ، وعبد العزيز بن سويد وكان شريفا ومن كبار الموظفين .

ثم صمتت المصادر عن النشاط السياسى لبنى تجيب منذ عصر الخليفة المعتصم فصاعداً . اذ يبدو أن ما عمد اليه المعتصم من اسقاط العرب من الديوان قد أفقد التجيبية خاصة والعرب عامة ذلك الوزن السياسى الذى حافظوا عليه منذ الفتح . ذلك أن الدولة عملت منـذئذ على استخدام الترك فى قواتهـا المسلحة . وانصرفت الكثرة الكثيرة من القبائل العربية فى مصر الى الريف المصرى تستقر فيـه وتمارس الزراعة أو التجـارة وتختلط بالمصريين . ولم تجـد فى المصـادر ما يدل على أى نشاط سياسى يذكر لبنى تجيب حتى قامت الدولة الطولونية ومولد المؤرخ أبو عمر محمد بن يوسف عام ٢٨٣ هـ .

ولم يقم التجيبيون بدور بارز فى أحداث مصر السياسية على النحو الذى بينـاه فحسب ، بل تكشف كتب التراجم والطبقات عن دورهم العظيم فى تاريخ الحياة الفكرية فى البلاد ،

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٢٦ ، ١٢٨

فكان منهم الكثيرون من أعلام مدرسة الفسطاط المصرية وكان منهم كثيرون من الصحابة والتابعين والقضاة والفقهاء والرواة والشعراء فقد شاركت فى الحياة الفنية بشعراء ثلاثة هم : أبو قبان وسعيد بن شريح وأبو شبيب . بل نستطيع أن نتتبع مساهمة التجيبية فى علوم الدين منذ مستهل القرن الأول الهجرى حتى العصر الذى ولد فيه المؤرخ . منهم سليم بن عتر قاضى مصر (٧٥ هـ) وعمار بن سعد التابعى (١٠٥ هـ) وحرملة ابن عمران المحدث المصرى (٨٠ ــ ١٦٠ هـ) وحبيب بن الشهيد (١٠٩ هـ) من أئمة مصر المجتهدين وفقيه طرابلس والمغرب وسعيد بن سامة بن مخرمة (١٥٢ هـ) من محدثى مصر ، وحرملة ابن يحيى الفقيه الكبير صاحب الشافعى (١٦٦ ــ ٢٤٣ هـ) ، وكان من أهم الشخصيات العلمية فى مصر ، ومحمد بن مسروق القاضى (١٧٧ ــ ١٨٤ هـ) [١] وسليمان بن يحيى بن وزير وأبو زرعة المحدث الذى قيل انه قتل فى فتنة القراءة (٢١٧ هـ) وأحمد بن يحيى بن وزير (١٧١ ــ ٢٥٠ هـ) من فقهاء مصر وعلمائها الكبار ويحيى بن السائب الذى روى عن مالك وابنه شعيب (٢١١ هـ) وكان رجلا صالحا غلبت عليه العبادة ويحيى ابن عبد الله صاحب مسائل العمرى قاضى مصر (١٨٥ ــ ١٩٤) وابراهيم بن عبد الله الخفاف المحدث (٢٠٥ هـ) ومحمد بن رمح الحافظ (٢٤٢ هـ) وعبد ربه بن خالد (٢٥٩ هـ) من الرواة

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٨٨ ــ ٣٩٢

وعبد الوهاب بن خلف المحدث المصرى (٢٧٠ هـ) وسليمان بن برده الفقيه وابنه أحمد (٢٥٧ هـ) وحفيده القاسم بن حبيش وحفيده أيضا أحمد بن الرقاع (٢٨٦ هـ) .

هكذا نستطيع أن نجزم بأن تجيبا كانت من قبائل مصر البارزة التى أثرت فى مجرى الأمور بها وتركت طابعها فى كثير من جوانب حياتها ، وفى مصر طوال القرون الثلاثة الأولى تطالعنا أسماء الكثيرين من الصحابة والتابعين والأمراء والموظفين الكبار والقادة والقضاة والفقهاء والرواة والشعراء والثوار ، وشواهد القبور تشير الى كثرتهم بمصر فى القرن الثالث والرابع الأمر الذى يدل على أنهم أفلحوا فى الاحتفاظ بوزنهم حتى ذلك الحين .

(٣)

الكندى المؤرخ

مولده ــ نشــأته ــ عصره

والمؤرخ الذى نعرف به وبكتابه يسوق الرواة اسمه على هذا النحو : أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف التجيبى الكنــدى المصرى . وقد ظن البعض ومنهم المؤرخ ابن خلكان أنه قد يكون حفيــد الفيلسوف الكندى المعاصر للمأمون والذى توفى عام ٢٦٠هـ وكان اسمه أبو يوسف يعقوب ولكن الفيلسوف الكندى لم يكن من تجيب انما كان

من عشيرة أخرى من عشائر كندة التى استقرت بالعــراق . ويجمع المترجمون له ونخص بالذكر منهم ابن ميسر وأبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى على أنه ولد سنة ٢٨٣ هـ وتوفى فى رمضان سنة ٣٥٠ هـ . فهو اذن ينحدر من عشائر كندة التى تدفقت على مصر بعد الفتح وشاركت فى أحــداثها السياسية وأثرت فى حياتها الاجتماعية والثقافية على النحو الذى رأينا . كما أنه من ذلك الجيل من العرب الذين عاشوا فى مصر أواخر القرن الثالث الهجرى [1] .

وانطلقوا الى الريف وخالطوا أهل البلاد الذين دخلوا فى الاسلام وبدأوا يحسون أنهم يمتون بأوثق صلة بهذه الأرض التى عاشوا فيها هذا الدهر الطويل . وأن صلتهم بهذه الأرض الطيبة أقوى من صلاتهم بأعراقهم القديمة فى أرض العرب وأنهم فوق تشبثهم بأنسابهم العــربية يتمسكون بنسبهم المصرى ، يظهر هذا واضحا من شواهد هؤلاء العرب الذين دفنوا بمصر ثم من لقب المصرى الذى يحرص عليه الكندى كل الحرص على سبيل الاعتزاز والفخر . ثم انه عاش سبعا وستين سنة من تاريخ البلاد ولا شك أنه تأثر بهما أشد التأثر ، بل كان ثمرة من ثمارها . نعم تأثر الكندى بالأحــداث السياسية التى سمع بها وليدا وعاصرها شابا وشــيخا الى أن قبض . ونكاد نلمح فى كتاب الولاة والقضاة صورة حية من انفعاله بأحداث العصر الذى

---

(١) ترجمة المصنف ــ مقدمة الكندى : الولاة والقضاة ص ٤ ــ ٥

عاش فيه وذلك من حـديثه عن انقراض دولة بنى طولون ، وكأنى به يعقد المراثى الطوال لهذا العز الزائل والمجد المولى فيذكر فى أحداث سنة ٢٩٢ « ... ثم أخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون انسانا ... وأخرج منها قواد بنى طولون ومواليهم وقتا بعد وقت فلم يبق منهم أحد يذكر فخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنـازل وحل بهم الذل بعد العـز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام » [1] .

ونراه يعـدد الشعراء الذين رثوا الدولة ويورد نمـاذج من شعرهم وأحيانا يورد القصـائد كاملة وكأنها تعبـير عن احساسـه ، فقد نقل قصـيدة لأحمد بن محمد الحبيشى وذكر منها نحواً من اثنى عشر بيتا ، كما نقل شعراً لأحمد بن أبى يعقوب ولاسماعيل بن هاشم ولسعيد القاص وشـعراً آخر لمحمد بن طشويه الذى رثا الميدان الذى أنشأه بنى طولون وأمر بهدمه الحسين بن أحمد سنة ٢٩٣ هـ ، وكذلك أبيات أخرى لأحمد بن اسحق الحكر ، كما تأثر كذلك بحياة العرب فى مصر آخر القرن الثالث الهجرى وبنمو مدرسة الفسطاط وتفوقها وبالاتجاهات التى وضحت فيها وكان هو صورة من اتناجها .

ولعل مزيدا من الفهم لحياة المؤرخ نفسه قد يتأتى من عرض سريع لأهم الاتجـاهات التى حفل بها عصره . لقـد شهدت السنوات التى عاشها الكندى فى مصر تطورات سياسية خطيرة

---

(١) الكندى : الولاة ص ٢٤٨

شملت العالم الاسلامى كله وتركت آثارا عميقة فى جميع الأمصار الاسلامية .

ومن أهم ما تميز به ذلك العصر وكان له أثره الواضح فى تاريخ مصر الاسلامية ما تناقله المؤرخون المعاصرون من عدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو التعذيب أو العزل أو على سلطانهم بالسلب والتضييق . وكأن الخليفة لم يأمن على نفسه فحسب بل ان منصب الخلافة فقد ما كان له فى النفوس من الهيبة والقداسة . وكأن الصورة المثالية للخلافة الاسلامية التى ازدهرت فى العصر العباسى الأول قد تحطمت وتلاشت وخضع سلائل العباسيين وذلوا للترك يستبدون بهم ويتحكمون فيهم [1]. وليس أبلغ فى تصوير ما انتهى اليه نظام الخلافة من ضعف وما وثب اليه الأتراك من نفوذ قول بعض الخلفاء لأحد خاصته : « كأنى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ولا يدرون أن هذا الأمر قد أفسد من قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى فسلمت الى قوم يتسحبون علىّ ويجلسون فى اليوم مرات ويقصدوننى ليلا ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه وأن يكون له بيت مال خاص . ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسبابى وآمر فيه بأمر فلا

---

(١) حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية ص ١ ـ٢

يمتثل ولا ينفذ .. وأكثر ما فيه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك رده وان رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا ... » [1] .

بل تجاوز نفوذهم حاضرة الخلافة وتطاول الى الأقاليم فكان الولاة يختارون اما من طبقتهم أو المقربين منهم . وها هو الكندى نفسه فى حوادث سنة ٢٣٨ هـ يقول : « وكأن عنبسة آخر من وليها من العرب » [2] ويعدد من أمراء الترك حتى قدوم أحمد بن طولون يزيد بن عبد الله التركى ومزاحم بن خاقان وأحمد بن مزاحم وأزجور التركى . فلم يكن الأمر اذن ضعف خلفاء بقدر ما كان ضعف النظام الخلافى نفسه فقد حفل هذا العصر بطائفة من الخلفاء لو كان زمانهم قد تقدم بهم لما كانوا أقل من المنصور أو الرشيد أو المأمون . كما أن هذه الخلافة المتهاوية نحو الضعف وهى تناضل من أجل الاحتفاظ بالنفوذ الذى فقدته شغلت بمشاكل اقتصادية واجتماعية عميقة قدر لها أن تشل حركتها وتشغل عليها تفكيرها .

والأمصار الاسلامية التى كانت فى عصر الراشدين والأمويين وصدر بنى العباس تخضع للسلطة المركزية فى المدينة أو دمشق أو بغداد وتستلهمها التوجيه وتوفد اليها الحاضرة ولاة أو عمالا تطول اقامتهم أو تقصر ، شهدت خروجا على هذه المركزية وشهدت عمالا لا تطول اقامتهم أو تقصر انما يورثون الملك ويظفرون باستقلال محلى للبلاد التى يظهرون فيها .

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٤٠٩

(٢) الكندى : الولاة ص ٢٠٠

ولد الكندى فى هذا الجو المشحون بالتطور الحافل بالأحداث ، فقد وفد أحمد بن طولون الى مصر وأنقذ البلاد من الفوضى والاضطراب وتمكن من النفوذ والسلطان وأصلح الأحوال الاقتصادية وأسس مدينة القطائع ومسجدها الجامع وأنشأ القوات المسلحة التى تدين له بالطاعة والولاء ، ولم يتردد فى أن يتصدى للموفق أخى الخليفة العباسى وأن يقف فى وجهه دفاعا عن نفوذه وسلطانه ، وانطلقت قواته تؤكد نفوذ مصر فى بلاد الشام وحاول أن يستضيف الخليفة العباسى فى مصر وأن ينقذه من أخيه الذى لاحقه بالاستبداد والاضطهاد . ومضى الى آسيا الصغرى مجاهدا وحصن الثغور ودافع عن حدود دار الاسلام . ولم تعد مصر فى عهده ولاية خاضعة انما أصبح أمرها بيدها ووفد اليها العمال والتجار يتفيأون ظل بنى طولون ثم خلفه ولده خمارويه فازدهرت القطائع وتألقت الحياة الاجتماعية وغلب الاستقرار وهدأت ريح الفتنة وانطلق فى نفس الطريق الذى انطلق فيه أبوه . واعترفت الخلافة بشرعية حكمه ، ثم تداعت الدولة الطولونية وتفككت أوصالها ، ولم تجد الخلافة التى كانت قد صحت من غفوتها الى حين ، بدا من أن تخضع الطولونيين بالقوة المسلحة فكانت حملة محمد بن سليمان الكاتب والقضاء على الطولونيين وتخريب القطائع واخضاع مصر لسلطان الخلافة المباشر حتى سنة ٣٢٣ هـ .

ولكن الاستقلال لم يكن بالتجربة العارضة غير ذات الجذور ولكنه كان متأصلا فى نفوس المصريين ، فقام محمد

ابن طغج بنفس الدور الذى قام به أحمد بن طولون من قبل واستقل بالبلاد وأصلح أحوالها وأنشأ القوات المسلحة واقتفى آثار بنى طولون ثم دب الضعف فى أوصال الأخشيديين فى مصر فى الوقت الذى كان فيه الكندى يغالب سكرات الموت .

وثمة تطورات أخرى اجتماعية عاصرت ظهور الكندى ونشأته ، ذلك أن النصف الأول من القرن الثالث الهجرى شهد إنتشارا للاسلام على أوسع مدى ، وشهد حركة اسلامية بعيدة الأثر ظهرت آثارها فى أكثر من ناحية ، ويمكننا أن نسوق لتأييد ذلك أكثر من دليل ، ففى ذلك الوقت على وجه التحديد انخفضت مقادير الجباية من الجزية المفروضة على غير المسلمين ، تتضح هذه الحقيقة من الاحصائية التى أوردها المقريزى فى كتابه الخطط [1] والتى تشير الى تناقص مطرد فى مقادير الجباية كلها .

ومعنى هذا كله ازدياد عدد الداخلين فى الاسلام حتى ان الجزية بدأت تختفى كباب من أبواب الايرادات . وفى هذا الوقت أيضا خفتت ثورات المصريين التى ظلت منذ أواخر القرن الأول الهجرى تظهر ثم تختفى ثم اختفت تماما فلم يعد لها ذكر : « ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى » [2] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٤

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ولا يفوتنا أن نشير الى ما تظهره الوثائق المعاصرة من غلبة المسلمين على وظائف العمد فى البلاد « نزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم »[1]. ثم تأكد هذا التطور فى العصر الطولونى فلم نسمع بثورة قام بها المسيحيون أو بمقاومة الدولة لتيار مسيحى قوى ، ولم نجد فيما ذكره البلوى وابن الداية أو غيرهم من مؤرخى العصر الطولونى أية اشارة الى الجزية كمورد مهم من موارد الدولة .. ونكاد نحس من النذر القليل من الوثائق التى بين أيدينا أن المجتمع الاسلامى فى عصر الطولونيين لم تتحدد معالمه بصورة قاطعة ، انما كان لا يزال فى طريقه نحو التطور ، فأوراق البردى التى ترجع الى العصر الطولونى تشير الى قوم أسلموا وما زالوا يحتفظون بنسبهم المسيحى الى جانب أسمائهم المصرية كما تشير هذه الوثائق الى ظاهرة زواج الذميات بالمسلمين وهى ظاهرة شاعت فى ذلك العصر الى حد بعيد[2] .

وكان هذا العصر أيضا مرحلة هامة فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ، هذه القبائل التى كان تيارها الدافق يفد الى البلاد منذ الفتح العربى حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى الذى كان عصر اضطراب فى حياتهم بعد حرمانهم من العطاء فى عهد المعتصم ، وبعد المعارك العنيفة التى نشبت بينهم

---

(١) الكندى : الولاة ص ٦٩

(٢) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ ١ وثيقة ٤٨

وبين ولاة بنى العباس وأريقت فيها دماؤهم وفقدوا زهـــرة شبابهم ولم يجدوا بدا من الرضوخ للأمر الواقع .

وبقيت بعض سلائلهم بالفســـطاط طوال العصر الطولونى غير أن الغالبية العظمى من القبـــائل العربية كانت تنزح الى الصعيد نزوحا مستمرا ثم تتجه الى حدود النوبة . ويبدو أن كثيرا من هذه القبائل العربية النازحة قد تمركزت فى عهد بنى طولون فى منطقة الصعيد الأعلى . ونعتقد أنها كانت من وراء الفتن والثورات الداخلية التى شهدها العصر الطولونى الأول . وكانت هذه القبائل فى بداية اختلاطها بأهل البلاد واستقرارها بريف مصر ، الدليل على هذا ما ورد فى كتاب المكافأة [1] من بث العرب القيسية بمديرية بنى سويف وامتداد نفوذهم حتى الجيزة . وكان القيسيون قد تمركزوا فى منطقة الحوف منذ أيام هشام بن عبد الملك ، والرحلة التى قام بها ابن الداية من مدينة هناس حتى الجيزة واختراقه مضارب الأعـــراب تدل على أنه كان يخترق ديار جماعات لم تكن قد استقرت استقرارا كاملا إنما كانت تحترف الســـلب والنهب وتفـــرض الاتاوات على المسافرين وتقوم بخفارتهم وتأمين تنقلاتهم .

على أن ثمة وثائق أخرى تدل على استقرار فريق من العرب ، بعض مدن مصر واستطابتهم الحياة المدنية ، ولم يكن البيت الذى ولد فيه محمد بن يوسف الكندى من العرب الذين رحلوا

---

(1) ابن الداية ص ٣٧ .

الى الريف بل كان من العرب الذين اختاروا الفسطاط دارا ومقاما ونعموا بما وفره الطولونيون للبلاد من هدوء واستقرار .

والقرن الثالث يحتل مكانا فريدا من تاريخ الثقافة العربية فى مصر اذ يمثل بداية النهضة الفكرية التى شملت المدارس الاسلامية كلها . فقد قطعت حركة الترجمة الى العربية أشواطا فى طريق التقدم وبدأ العرب يردون موارد الفكر القديم ولاحت معالم الامتزاج بين الثقافات العربية الأصيلة وبين هذه الثقافات العريقة . وبدأت تظهر ثمار هذا الامتزاج بظهور معارف لم يكن للعرب بها عهد من قبل واقبالهم على منابع فكرية لم يسبق لهم أن وردوها ، ولاحت فى كتب ذلك العصر ثمرة النهضة الجديدة ، وفشت هذه النهضة مع انتشار الاسلام على نطاق واسع لم يشهده العالم الاسلامى من قبل . وغلبت الصبغة الاسلامية على الأمصار المفتوحة وبدأ المسلمون يلائمون بين تراثهم القديم الموروث وتراثهم الجديد المكتسب . وشهد هذا العصر ظهور الامارات المستقلة فتنافست فى ميدان العلم والمعرفة . ودبت النهضة فى الأمصار الاسلامية كلها وظهرت مدارس محلية تنافس مدارس الحاضرة فى نشاطها وانتاجها .

ولم يكن من المعقول أن تقف مصر بمعزل عن هذه النهضة الفكرية فقد كان العصر الطولونى يمثل مرحلة تطور هامة يمكننا أن نحدد معالمها .

فقد قام الطولونيون بنفس ما قام به الأمراء المستقلون من تشجيع الحركة العلمية بقدر ما يستطيعون ومن ضرورة بلاطهم

المزدهر وحيـــاتهم الاجتماعية المترفة وغنـــاهم الموفور قبلة الراحلين والوافدين من حاضرة الخلافة ومن أدلائهم يدلوهم فى ميدان هذه المنافسة الثقافية المحببة التى كانت من أهم عوامل اذكاء هذا التيار الفكرى الدافق ، وفيما كتبه مؤرخو العصر الطولونى اشارات كثيرة الى تشجيع الطولونيين للعلوم الدينية ، فقد عنى أحمد بن طولون على وجه الخصوص بحفاظ القرآن وجعل المســجد الطولونى بعد انشائه مكانا لرواية الحــديث ودراسته ، واذا كان ابن طــولون قد مد يد المساعدة لفقهاء الشافعية فقد كان يحضر مجالس فقهاء الحنفية بنفســه . ولم يقتصر تشجيع الطولونيين على العلماء المقيمين بمصر بل امتد الى العلماء الوافدين لتلقى العلم أو التدريس فى مدارس مصر ، كما أسهم الطولونيون فى تشجيع الشعر والشعراء استدرارا للمديح واســتخداما لأقلام الشعراء ومســاهمة فى المنافسات الأدبية التى شاعت فى ذلك العصر ، فالمقريزى ينقل عن النابلسى قوله : « انه رأى كتابا قدر ١٢ كراســة بها فهرست شعراء الميدان » [١] . ويرجع الى الطولونيين الفضل أيضا فى تشجيع الكتابات الديوانية بانشاء أول ديوان للانشاء فى مصر ، وحفل العصر الطولونى بطائفة من أئمة الكتاب ومشاهيرهم ، روى القلقشندى أن أهل بغداد [٢] : « كانوا يحســدون أهل مصر طبطب المحرر وابن عبد كان ومعين كاتب الانشاء لابن طولون

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٢) صبح الأعشى جـ ١ ص ٩٥ .

ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهمـــا » .

ومن ملامح هذه النهضة أيضا أن مدارس مصر الاسلامية اشتد رسوخ قدمها فى هذا العصر ولاحت نذر استقلالها عن المدارس الاســلامية الأخرى وبرزت فى ميــدان الدراسات الاسلامية وأصبحت مركزا من مراكز الحياة العقلية .

ونعتقد أن الدراسات الفقهية فى مصر قطعت شوطا أبعــد مما قطعته فى العهد السابق . شهد العصر السابق وفود الامام محمــد بن ادريس الشافعى واقامته فى مصر كما شهــد ميلاد المذهب الشافعى . أما هذا العهد فقد شهد ثبوت هذه القدم وصمود هذا المذهب للمناقشات الفقهية جميعها . يدل على هذا ذلك الصراع العنيف الذى ثار بين فقهاء المــالكية والشافعية واشتداد النزاع بين المدرستين حتى اقتتلا فى المسجد العتيق . على كل حال هيأت الشافعية جوا جديدا لم تعهده مصر من قبل، اذ استطاعت أن تنافس المذاهب الأخرى وأن تناظرها ، وأخذ المصريون يؤلفون كتبا فى المذاهب والدفاع عنها وأخذوا عن الشافعى طريقته فى الكتابة العلمية . وكتب التراجم تعطينـــا صــورة طيبة لانتشار المذهب الشــافعى فى مصر فى العصر الطولونى وتتحدث عن كثرة التلاميذ الذين تبنوا هذا المذهب بل تســلل الشافعية الى منصب القضــاء ، كما وفد مذهب أبى حنيفة وارتفع شأن المالكية وبرز منهم محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم الذى انتهت اليه رياسة المالكية فى ذلك العصر

وقصده الناس من كافة البلاد وحضر اليه الطلاب من المغرب والأندلس . وقد أضفى أحمد بن طولون حمايته وعطفه على هذه المدارس الفقهية على قدم المساواة .

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية فى العصر الطولونى على يد الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاد . نشأ فى مصر ورحل الى العراق ثم عاد الى مصر ووضع كتاب « المنمق فى النحو » ، توفى سنة ٢٦٨ هـ ، وأنجبت المدرسة اللغوية أيضا أحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب « المهذب فى النحو » وأبا جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل صاحب كتاب «معانى القرآن ومنسوخه» ، ويضيف ابن خلكان الى هؤلاء محمد بن حسان النحــوى الذى روى النحــو عن أبى زرعة المؤذن ، وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى بن اسحاق سنة ٢٩٢ هـ .

والقرن الثالث هو العصر الذى خطا فيــه تدوين التراث العربى خطوات بعيدة المدى وظهرت الدراسات التاريخية على يد الطبرى والبلاذرى متسمة بطابع أهل الحــديث من الدقة واثبات السند والتحرج فى الرواية ، وقد شاركت مصر فى هذه النهضة التاريخية بظهور عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم وأحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية .

وقد شهد العصر الطولونى أيضا شيوع الثقافة فى مصر كلها ، فلم تعد هذه الدراسات العربية مركزة فى المدارس التقليدية فى الفسطاط والقطائع والاسكندرية ، انما أوغلت هذه الثقافة

فى الدلتا والصعيد وظهرت مراكز اقليمية أخرى أسهمت فى هذه النهضة الفكرية ، فالأدفوى [1] يشير الى من يسمى قحزم ابن عبد الله الذى سكن أسوان وكان فقيها شافعيا بل كان من عمد الدراسات الاسلامية فى أسوان ، ويشير كذلك الى محمد ابن أحمد بن ربيعة بن سليمان فقيه أسوان الذى مات بعد سقوط الطولونيين ببضع سنوات .

وامتدت هذه النهضة الى الأدب شعرا ونثرا ، اذ بدأ الشعر يتخذ طابعا اقليميا وبدأ يختص بالبيئة المصرية ويعبر عن مشاكلها ويصف معالمها ويترجم عن حياة أمرائها وظهر الأدب المصرى على العموم مصطبغا بالصبغة المصرية الخالصة .

كما شهدت مصر فى العصر الطولونى ألوانا من العلوم التى شاعت فى ذلك العصر مثل علم الكلام والطب .

ولم تتوقف مدرسة الفسطاط نموا وتطورا وانطلاقا بعد زوال الطولونيين فقد انطلقت أيضا فى عصر الاخشيديين وبرع المصريون فى علوم القرآن والحديث وألفوا كتبا كثيرة فى القراءات ، نذكر منها على سبيل المثال كتاب « اختلاف القراءات السبعة » لأحمد بن أسامة التميمى المتوفى سنة ٣٤٢ هـ وكتاب التذكرة فى القراءات لعبد الجبار أحمد المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، واستملت علوم القرآن فى مصر على النحو الذى عرف عند جمهور المسلمين من تفسير ومعرفة أسباب النزول والناسخ

(١) الطالع السعيد ص ٢٥٩

والمنسوخ ، وما في القرآن الكريم من أحكام وما فى أسلوبه من اعجاز وكثرت المؤلفات فى ذلك كله . ونذكر على سبيل المثال كتاب تفسير القرآن » وكتاب الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس المصرى وكتاب اعراب القرآن لأبى الحسن عامر بن ابراهيم الحوفى وغير ذلك من التصانيف التى وضعها المصريون . وفى الفقه برز محمد بن سليمان المعروف بأبى بكر النعال الذى كانت له رياسة المالكية فى عصره وكانت حلقته فى المسجد الجامع ــ على نحو ما يذكر الرواة ــ تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة الطلاب الذين قصدوا للأخذ عنه وتوفى سنة ٣٨٠هـ، ومنهم أبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى المصرى صاحب مسند الموطأ والمتوفى سنة ٣٨٠ هـ ، وعلى بن الحسن بن محمد بن العباس الفهرى صاحب كتاب فضائل مالك . ونحن نعرف قصة الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على أحد الأئمة المجتهدين فى فقه مالك والذى وصفه صاحب تاريخ بغداد بأنه لم ير فى المالكية أفقه منه ، وقد وفد على مصر لضيق ذات يده فأكرمه المصريون . وشمل هذا التطور العلوم الأخرى كعلوم النحو واللغة ويكفى أن علم التاريخ انطلق انطلاقته الكبيرة على يد مؤرخنا أبى عمر الكندى .

الخلاصة أن عوامل هامة قدر لها أن تؤثر فى حياة الكندى وفى نشأته منها الاستقلال السياسي والرخاء المادى الذى صحب قيام الدولتين الطولونية والأخشيدية ، وما كان من تشجيع هؤلاء الأمراء للحركة العلمية بكل سبيل ، ثم ذلك التطور

الذى خضعت له القبـائل العربية فى مصر منـذ أيام المعتصم واختلاطها بالمصريين وشعورها بفخر الانتساب الى الأرض التى استقروا بها ثم استقلال مدرسة الفسطاط وتميزها بطابع خاص فى الفقه وعلوم القرآن والحديث وشدت اليها الرحال من مختلف أنحاء العالم الاسلامى التماسا لرواة الحديث بها . وقد جاء النسائى نفسه الى مصر مرتين مرة قبل عام ٢٤٨ هـ ثم مرة أخرى عام ٣٠٣ هـ أى قبل وفاته بسنة واحدة .

فى هذه البيئة التى شهدت كل هذه التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولد محمـد بن يوسف بن يعقوب عام ٢٨٣ هـ ــ على نحو ما ذكرنا ــ فى بيت شريف من بطون عشيرة تجيب التى آثرت اذ ذاك ألا تنتقل الى الريف على نحو ما فعلت أغلب القبائل العربية ، انما أقامت بالفسطاط لتفيد مما شاع فيها من طمأنينة واستقرار فى عهـد الطولونيين . وكان بيته من البيوت العربية التى أسهمت بنصيب فى الحركة العلمية وتفوق أفراده فى علوم القرآن والحديث ، فقد كان عمه الحسين ابن يعقوب أحد مشاهير رواة الحديث فى مصر وبرز ابنه عمر فألف كتابا أسماه فضائل مصر أمر بجمعه كافور الأخشيد [١] .

ومن الغريب أن مثل هذا المؤرخ لا يكتب الرواة عن حياته الا النذر اليسير حتى اكتنفها الغموض ولا يستطيع المرء أن يعرف الكثير عن ظروف نشأته الأولى . وكانت طفولة الكندى

---

(١) وهو الكتاب الذى قامت بنشره :

Bull. de l'acad. Rey. Danemark, 1816.

لا تختلف كثيراً عن طفولة أترابه من العرب الذين نشأوا فى الفسطاط فى ذلك العصر ، فقد أقبل على حفظ القرآن ولكن يبدو أن الكندى قد وجه بصفة خاصة الى علوم الحديث التى تفوقت فيها أسرته منذ زمن بعيد . وكان الأولاد بعد أن يحفظوا القرآن يرسلون الى رواة الحديث المشاهير يسمعون منهم وينقلون عنهم . حكى ابن زولاق عن ابن الحداد قال : « منعنى أبى من سماع الحديث قبل أن أستظهر القرآن حفظا فلما حفظته قال لى : خذ المحفظة واذهب الى يعقوب بن ابراهيم الدروقى فاكتب عنه فتوجهت فاذا الناس يقولون : مات يعقوب الدروقى »[1] .

ومعنى هذا أن دراسة الحديث لم تكن تبدأ قبل حفظ القرآن ولا قبل سن التاسعة .

وقد تلقى الكندى علوم الحديث على علمين بارزين من أعلام عصره ، على راوية معروف هو عامر بن الحسن بن خلف وأبو القاسم الأزدى الملقب بابن قديد ، وقد ولد ابن قديد سنة ٢٢٦ هـ وتوفى سنة ٣١٢ هـ والكندى فى التاسعة والعشرين من العمر . وفى الوقت الذى زار فيه الرحالة ابن دقماق مصر عام ٣١١ هـ كان ابن قديد قد احتل فى الفسطاط منزلة عظيمة . ويبدو أن الكندى قد اتصل بابن قديد اتصالا وثيقا ، ويكفى أن الكندى روى عنه أكثر الأحاديث التى وردت فى كتاب الولاة والقضاة وهو الذى يحتل المقام الأول بين رواة الكندى .

---

(١) الكندى ص ٥٢٣

وروايات ابن قديد فى الواقع تستمد من مصدرين : من ابن عفير وابنه عبد الله ، ثم يحيى بن عثمان بن صالح . ثم ذاعت شهرة الفسطاط وارتحل اليها النـــاس طلبا للحديث ، ويكفى أن نذكر أن البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه كثيراً عن الصحيفة المصرية فى التفسير ، وأن الطبرى نقل الشطر الأكبر عنها فى تفسيره والصـــحيفة المصرية شاد بها عدد من العلمـــاء ، فقال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده : « بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل رجل فيها الى مصر قاصـــدا ما كان كثيراً » ، لهذا وفد النسائى الفارسى[1] مؤلف أحد الصحاح الستة فى الحديث على مصر ليرد مورد الفسطاط ويقرأ صحيفتها ويلتقى بمحدثيها . وقد زار مصر للمرة الأولى عام ٢٤٨ هـ ثم جاء مرة أخـــرى وبقى فيها حتى عام ٣٠٢ هـ . وقد التقى الكندى بالنسائى عندما جاء الفسطاط للمرة الثانيـــة وكان الكندى فى السابعة عشرة من عمـــره ، ويبـــدو أن الكندى أرسل للسماع من النسائى لكنه لم يتصل به اتصالا وثيقا . ولم يكن من أتباعه المقربين . فقد كان الكندى حنفى المذهب ، والنسائى شافعيا ، وكانت للنسائى ميول علوية ظهرت فى كتابه الخصائص ، ويقال انه لقى حتفه ببلاد الشام لهذا السبب . ويبدو أن الكندى تأثر على نحو ما بنظرة النســـائى الى الشيعة رغم تمسكه بمذهب أبى حنيفة . وكان صديقه القاضى محمد بن أحمد بن الحداد

---

(١) أحمد بن شعيب ، أبو عبد الرحمن .
الكندى صفحات ٥ ، ٥٢٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥

شافعى المذهب ولكنه علوى الهوى يحدث بكتاب خصائص النسائى « فحكى أنه كان فى مجلس أبى القاسم بن الأخشيد مع جماعته فلما نهضت (ابن زولاق) أمسكنى فقلت : أحاجة قال : نعم . أيهما أفضل أبو بكر وعمر أو على فقلت : اثنان حذاء واحد فقال وانما أفضل أبو بكر وعمر أو على فقلت ان كان عندك فعلى وان كان بدا فأبو بكر . قال ابن زولاق وهذا أعجب ما بلغنى عنه » . وقد أشار الكندى اشارة خاطفة الى حياته الخاصة بقوله : « اعتل حمزة بن محمد الكنانى فركبت أنا وابن الحداد اليه فقال : يا أبا القاسم جئتك عائداً وزائراً وقصدت أن أقعد عندك الى الظهر ، وكان عند حمزة جماعة فجلسوا وأخذ أبو بكر وحمزة فى المذاكرة فى الحديث والرجال وما يتعلق بذلك من فن حمزة . وكان ابن الحداد يفى بالعلوم لا يبقى علم الا شارك فيه مع حسن المذاكرة الى أن اتفق أن قال حمزة : ما يرد القيامة أحد بميزان أثقل من ميزان قحافة لأن أبابكر فيه ، فقال أبو بكر الذى أقول ما يرد القيامة ميزان أثقل من فاطمة بنت الرسول لأن أباها فيه ونهض فانصرف [1] » .

ولا نعرف السن التى بلغ فيهـا أبو عمر الكندى درجة التضوج الفكرى وانتهت تلمذته ليبدأ انتاجه ، ولا أى فروع العلم استهوته قبل الأخرى والأستاذ « R. Guest » [2] فى مقدمة

---

(١) الكندى : ص ●●●

(١) مقدمة الكندى . p. 7

كتاب الولاة يشير الى أن المؤرخين للكندى يذكرون أنه فى آخر أيامه جلس لرواية الحديث وأن السيوطى لم يشر اليه كراوية عن النسائى أو ابن قديد كما لم ترد اليه اشارة فى كتاب التهذيب لابن حجر الأمر الذى يدل على أنه لم يكن من المبرزين فى هذا الميدان .

ونعتقد أن الدراسة الدقيقة لحياة الكندى المؤلف انما تدل فى وضوح على أنه بدأ بالحديث علما ورواية وانتهى بكتابة التاريخ . وهذا هو الذى يتفق فعلا مع منطق الأشياء ، وكان شأنه شأن ذلك الجيل من المؤرخين الذين ظهروا فى الحياة الاسلامية فى القرن الثالث وأول الرابع ، اشتغلوا بالحديث والتفسير وعلوم القرآن مثل ابن عبد الحكم والطبرى والبلاذرى وغيرهم . كما أن الكندى بوجه خاص قضى حياته كلها فى مدينة الفسطاط دار علم الحديث وروايته ، ولم يرو أنه غادرها فى حياته أبداً ، بل مات فيها ودفن فى مقابرها . وكان كثيرون من أفراد أسرته وخصوصا عمه من المهرة فى علوم الحديث ، لذلك نشأ فى جو فرغ للحديث وعلومه ، كما اشتهر كثيرون من التجيبية بهذا اللون من ألوان الثقافة الاسلامية ونذكر منهم على سبيل المثال أسامة بن عبد الرحمن التجيبى (٢٥٠ — ٣٠٧ هـ) ويحيى بن أبى معاوية التجيبى وعمه الحسين بن يعقوب . ولا ننسى أن القرن الثالث فى مصر بوجه خاص هو العصر الذى وضعت فيه أصول علم الحديث ونقده واستخلاص

السنن . ورحل الى مصر أصحاب مجاميع الحديث أمثال البخارى ومسلم والنسائى ونقلوا روايات المصريين أمثال خالد بن حميد الاسكندرانى (١٦٩ هـ) وخلاد بن سليمان الحضرى (المتوفى سنة ١٧٨ هـ) وعبد الله بن وهب صاحب كتاب الجامع فى الحديث والذى يقال أنه روى عن أربعماية من الشيوخ وأنه أكثر من رواية الحديث ، وهو أحد رواة الموطأ ، وروايته للموطأ لا تزال احدى نسخها محفوظة بأحد مكاتب الآستانة ، وابن زكريا الآدم وليث بن عاصم الخولانى .

وقد جرت العادة فى عصر الكندى على تدوين الأحاديث ويكفى لاثبات ذلك الاشارات العديدة التى وردت فى كتاب الولاة عن المجالس التى كانت تعقد لكتابة الأحاديث وقراءتها ونسخها . وكانت كتابة الحديث وسيلة استخدمت فى البلاد منذ وقت طويل . اذ يستفاد مما كتبه الليث وابن لهيعة أن الكتابة فى تدوين الحديث شاعت فى مصر منذ منتصف القرن الثامن الميلادى . وفى كتاب الكندى الولاة والقضاة اشارات الى اهتمامه بدراسة الحديث والرجال . وقد أشرنا الى المجلس الذى عقده الكندى والقاضى ابن الحداد فى بيت حمزة بن محمد الكنانى .

ويكفى للدلالة على المكانة التى احتلها الكندى بين المحدثين فى مصر فى القرن الثالث وأول الرابع ، أن نتعرف على الرجال الثقاة الذين روى عنهم والذين أشار اليهم فى كل

صغيرة وكبيرة من كتاب الولاة والقضاة مثل روايته عن ابن قديد والحسن بن محمد المدينى وأحمد بن داود بن صالح ومحمد ابن موسى الحضرى وأحمد بن الحارث بن مسكين (٢٣٩ ــ ٣١١ هـ) وأبو بشر الدولابى (٣١٠ هـ) وعبد الرحمن بن اسحق (٢٥١ ــ ٣٢٠ هـ) ومحمد بن الربيع الجيزى (٢٣٨ ــ ٣٢٤ هـ) وكان أبوه من أصحاب الامام الشافعى ومحمد بن زبان بن حبيب الحضرى (٢٢٥ ــ ٣١٧ هـ) ولولا مكانة أبى عمر فى علم الحديث لما اعتمد عليه كراوية المؤرخ ابن زولاق . وقد وردت الاشارة اليه فى كتاب الولاة والقضاة ما يزيد عن خمس وثلاثين مرة ، الأمر الذى يدل على أنه لم يكن راوية خامل الذكر . لذلك نعتقد أن الكندى بدأ حياته العلمية يروى الحديث ويعلمه . .

وفى معرض حديثنا عن مكانة الكندى فى هذه الناحية الهامة من نواحى الثقافة الاسلامية فى مصر لا بد من الاشارة الى لون آخر انفرد به الكندى دون غيره من المؤرخين السابقين والذى تدل على تمكنه من أسرار العربية وبراعته فى فنونها وأقصد كلفه بالشعر وروايته وتضمين كتابه مختارات كثيرة من أشعار ذلك العصر . ولم يكن هذا الشعر لمجرد الاستشهاد انما يدل على أنه كان رجلا ذواقة يستسيغ الشعر ويتخير النصوص التى تؤيد وجهة نظره . وهذا الشعر الذى أورده الكندى ذو قيمة تاريخية خاصة ، فهو يلقى ضوءا على

الإتجاهات القبلية والدينية وهى تعبـير عن الآراء الشائعة فى عصره وتساعدنا على تصور الحياة التى سادت مصر فى ذلك الوقت ، بل تلقى أضواء على طريقة قرض الشعر والأثر القوى الذى تركه الشعر فى الحياة المصرية ، وهى فوق هذا مصادر هامة لدراسة الجذور الأولى للأدب العربى فى مصر .

والكندى [1] يعطينا أمثلة لشعر قاله قوم لم يفرغوا للشعر وان كانوا قد أظهروا بعض المهارة فيه كالخلفاء والولاة والقضاة. كما أنه يتخير أبيات قالها شعراء لم يكن لهم اتصـال وثيق بمصر مثل ابن عيادة وابرهيم بن المهـدى ودعبل وأبو شمر والصبيحى . ثم نراه يستشهد بأبيات من نحو خمسين قصيدة . ويتميز العصر الأموى بعـدد الشعراء المشاهير الذين زاروا مصر بين سنتى ٦٥ ، ٨٦ هـ مثل عبد الرحمن بن الحكم الذى جاء مع حملة ابن الزبير وآخرون جذبهم بلاط عبد العزيز بن مروان ومن هؤلاء كثير ونصيب وابن قيس الرقيات [2] وأيمن بن حزيم وعبد الله بن الحجاج والثعلبى وجميل والشاعرة عزة . والكندى يقتبس بيتين أو خمسة أبيات من خمسة من شعراء العصر الأموى الذين كانوا من أهل مصر ومن أكثرهم التصاقا

---

(١) الولاة ، صـفحات : ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٢ – ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ – ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٠ – ٩٥ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٤٢ – ١٤٥ ، ١٥٠ – ١٥٦ ، ١٦٠ – ١٧٠ ، ١٧٠ – ٢٠١ ، ٢١٦ – ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ – ٢٢٩ ، ٢٣٠ – ٢٣٨

(٢) الكندى ص ٥٠

بهذه البــلاد مثل ابن أبى زمزمة اذ يرد ذكره مرتبطا بحوادث سنة ٦٥ هـ وكذلك حوادث سنة ٨٨ وقد اضطر الى الفرار بعد هجائه أحد الولاة . وفى العصر العباسى ورد ذكر اسحق بن معاذ بن مجاهد ويحيى الخولانى وقد هجوا بعض قضاة عصرهم ، ومن أهم شعراء ذلك العصر :

سعيد بن عفير :

وقد نقل الكندى له اثنتى عشرة قصيدة تتناول الأحداث من سنة ١٦٨ الى سنة ٢٠٩ هـ وتظهر فيها القبلية واضحة وكان يؤيد قحطان وقضاعة كما هاجم الولاة فى مناسبتين أو ثلاث ولم يتصــل بذوى الســلطان الأمر الذى يدل على أنه كان مستقل الشخصية .

المعلى الطائى :

وكان معاصرا لابن عفير ولكنه كان من طراز آخر فكان يمتدح الولاة ولم يجد بأسا من أن يمتدح أعداءهم اذا آلت اليهم السلطة . ويشير أبو الفرج الى مدحه ابن طاهر بعد قضائه على السرى بن الحكم الذى كان المعلى قد اتصل به ومدحه . ويقال أنه اتصل بأبى نواس الذى أقام بمصر وقتا ، وما نقله الكندى من شعر المعلى يقع بين سنتى ١٩٤ ، ٢١٤ هـ .

ابو تمام صاحب الحماسة :

كان شآمى المولد أكثر من النقلة فى حياته القصيرة ومن الغريب أن يعده المصريون شـــاعرهم العظيم وذلك لأنه قضى شبابه فى مصر . وقد وردت فى الحماسة قصيدة منسوبة الى حطان بن المعلى وتدل على العلاقات الطيبة بين بنى المعلى وأبى تمام لانتمائهما الى قبيلة واحدة .

وينقل الكندى عن أبى تمام خمس قصائد ثلاث منها سنة ٢١٤ هـ وقد تضمنها ديوان أبى تمام فى مدح عمير بن الوليـــد ويقال انها من أقدم قصائد أبى تمام ، والقصيدتان الباقيتان فى مدح ابن طاهر بعد قضـــائه على السرى ولم يتضمنها ديوان أبى تمام ، وهذا يدل على أن أبا تمام قال الشعر مبكراً .

الحسين بن عبد السلام :

كانت له شهرة واسعة فقـــد ورد ذكره فى القاموس وفى الفهرست وأشار اليه ابن خلكان ، ويذكر الكندى نحواً من خمسين بيتا من قصائده فى مدح أحد القضاة أو فى هجاء بعض الناس وكلها تتعلق باحداث سنة ٢٢٧ هـ [1] .

ويبدو أن هذا الشاعر قد ولد قبل مستهل القرن التاسع الميلادى اذ يذكر أنه تلقى من الشافعى وأنه مات سنة ٢٥٨ هـ .

---

(١) الكندى : ص ٤٥٢

وأثر الطولونيين فى تشجيع الأدب والفن غير مجحود والمقريزى يذكر أن شعراء العصر الطولونى بلغ من كثرتهم أن أسماءهم ملأت نحواً من اثنتى عشرة كراسة . ولم ينقل الكندى الا القليل من الشعر الذى ظهر فى هذه الفترة .

وممن أشار اليهم اسماعيل بن أبى هاشم وأحمد بن أبى يعقوب وسعيد القاص ومحمد بن طاشوية الذى رثا بنى طولون والقاسم بن يحيى المريمى المتوفى سنة ٣١٦ هـ . وقد مدح البحترى خمارويه أثناء وجوده ببلاد الشام . ومن شعراء بنى طولون الذين أشار اليهم الكندى محمد بن داود الذى هجا أحمد بن طولون فى نحو خمس قصائد ، ويبدو أنه كان من أتباع الموفق وأحمد بن محمد الحبيشى الذى وفد الى مصر سنة ٢٩٢ هـ مع محمد بن سليمان الكاتب ولم يذكر من الشعراء بعد الطولونيين غير ابن مهران .

على أن الجانب الذى نهتم به من حياة الكندى ليس اشتغاله بالحديث أو روايته للشعر ونقده اياه انما اشتغاله بالتاريخ والمكانة العظيمة التى احتلها بين مؤرخى مصر الاسلامية . ذكر ابن ميسر عن الكندى أنه كان عارفا بأحوال الناس وسير الملوك ، وذكر أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى « أنه كان من أعلم الناس بالبلد وأهله وأعماله وثغوره وله مصنفات فيه وفى غيره من صنوف الأخبار والأنساب وكان من جملة أهل العلم بالحديث والنسب عالما بكتب الحديث صحيح الكتابة ، نسابة عالما بعلوم العرب » .

ولعل هذا يدفعنا الى التعرض للآثار التى تركها الكندى فى المكتبة التاريخية . ويبدو أن الكندى أنتج تراثا تاريخيا ضخما الأمر الذى يضعه فى المحل الأول بين المشتغلين بالتاريخ الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ولهذا المؤلف كتب أشار اليها اللاحقون عليه اقتبسوا منها أو نقلوا عنها ثم ضاعت فلم يصلنا منها شىء يذكر ثم مؤلفات أخرى وردت عنها اشارات مماثلة عند بعض المؤرخين اللاحقين ولكن لا نعرف عناوينها على وجه التحديد ثم مؤلفات أخرى لا زالت باقية بين أيدينا حتى اليوم ناطقة بذلك الجهد المضنى الذى بذله الكندى فى اعدادها وهى التى سنعرف بها فى هذا الكتاب وأقصد كتاب الولاة وكتاب القضاة .

ومن المؤلفات التى نعرف أسماءها ولكنها ضاعت فلم يصلنا منها شىء :

١ ــ كتاب الأجناد العربية : وقد أشار اليه ابن دقماق فى الانتصار عند حديثه عن جامع عمرو بن العاص سنة ٨٩ هـ كما أشار اليه المقريزى فى الخطط .

٢ ــ كتاب الخندق والتراويح : وقد أشار اليه المقريزى والسيوطى ويبدو أنه يعرض لواقعة الخندق سنة ٦٥ أيام ابن الزبير وولاية ابن جحدم وهو الخندق الذى حفره ابن جحدم للدفاع عن الفسطاط وكانت تلك الأيام تسمى أيام الخندق والتراويح لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا

يخرج هؤلاء ثم يرجعون ثم يخرج غيرهم . قال عبد الرحمن ابن عبد الحكم :

ألا هل أتاها على نأيها بناء التراويح والخنـــدق

٣ ــ الخطط : ولم يثبت أن أحدا قد اقتبس منه ولكن يبدو أن مادة كبيرة من هذا الكتاب قد نقلها ابن دقماق فى الانتصار عند حديثه عن مساكن الفسطاط وخططها كما أشار اليه المقريزى فى خططه فذكر أن الكندى كان أول من كتب فى الخطط والآثار ، ويبدو أن ما ذكره المقريزى عن معبد سمنود قد نقله عن الكندى .

٤ ــ أخبار مسجد أهل الراية الأعظم : أشار اليه ابن دقماق والمقريزى ، وهو يعرض للجـامع العتيق ــ جامع عمرو ابن العاص .

٥ ــ سيرة السرى بن الحكم : وردت الاشارة اليه فى تراجم المقفى .

٦ ــ سيرة مروان بن الجعد : وقد أشار اليه ابن ميسر .

٧ ــ كتاب الموالي : أشار اليه ابن دقماق والمقريزى ، ويبدو أنه كان تاريخا للموالى المسلمين من أهل البـلاد الذين امتازوا فى الحياة العربية ، وقد قدم لمحمد بن بدر الصيرفى المولى الذى ولى قضاء مصر بين سنتى ٣٢٤ ، ٣٣٠ هـ .

ويذكر المؤرخون للكندى أنه ألف كتبا أخرى لا نستطيع أن نتحقق من عناوينها على وجه الدقة ، فقد أشار ياقوت فى

ارشاد الأريب الى كتاب للكندى فى التاريخ يبدأ بسنة ٢٨٠ هـ ولم ترد اليه اشارة فى مؤلفات الكندى السابقة .

ويشير ابن[1] دقماق الى تاريخ للكندى ويذكر أنه رآه ... وفى هذا الكتاب نحو من ست فقرات للكندى يتعرض فيها لأحداث وقعت بعد سنة ٢٤٦ وأحيانا سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠ ولا يبعد أن تكون هذه الفقرات مستقاة من مراسلات للكندى مع غيره من علماء العصر أو مستمدة من كتاب للكندى عن قضاة عصره ولكنه ضاع .

ويذكر السيوطى أن الكندى ألف كتابا اسمه فضائل مصر ويبدو أن السيوطى خلط بين الكندى وبين ولده عمر ، والسيوطى يذكر أنه ألف فى عهد كافور على حين مات الكندى سنة ٣٥٠ هـ .

أما الكتاب الذى بين أيدينا اليوم فهو كتاب الولاة الذى اعتمد عليه المقريزى فى خططه اعتمادا كبيرا ونقل عنه أخبار الطولونيين دون أن يشير اليه ، كما نقل عنه ابن دقماق أيضا والكندى يتحدث فيه عن تاريخ مصر منذ فتحها حتى سنة ٣٣٥ هـ . وقد رتبه المؤلف حسب الولاة الذين تولوا حكم مصر ويذكر الحوادث التى وقعت فى عهد كل واحد منهم ومتى ولى ومتى عزل ، وقد رتب المادة ترتيبا تاريخيا ، ولكل وال عنوان خاص ذكر فيه سنة توليته وسنة عزله وأصحاب الشرط الذين تولوا فى عهده والأحداث التي وقعت والشعر الذى قيل فى بعض المناسبات . ولم يخرج هذا الكتاب عن غرضه أبدا من

عنايته بالحروب والثورات والأحداث وهو أحيانا يكتفى بتعداد أسماء الولاة وفى بعض الأحيان الأخرى يورد بعض التفصيلات الطريفة ووقف فيه عند نهاية محمد الأخشيد سنة ٣٣٥ وحالت المنية دون اتمامه .

والجزء الثانى من هذا الكتاب عن القضاة وقد نقل أغلبه ابن حجر فى كتاب رفع الاصر ولم يشر اليه المقريزى فى الخطط وقد أفرده للقضاة فى مصر ويعرض لهم عرضا تاريخيا ويعنى بتاريخ توليهم ويضيف الى ذلك بعض الأخبار والتفاصيل وقد يشير الى بعض أحكامهم وفى بعض الأحيان يشير الى القضايا بالتفصيل كما يشير الى القضايا التى رفعت للخليفة ليفصل فيها وهو يلقى أضواء لا بأس بها على تطور الحياة العربية فى مصر . وينتهى الكتاب بولاية بكار القاضى سنة ٢٤٦ ، ويشير ابن خلكان الى أن تاريخ القضاة ينتهى فى هذه السنة تقريبا ، وقد بدأت محاولتان للتذييل عليه : المحاولة الأولى من سنة ٢٤٦ الى سنة ٣٦٦ وتنسب الى أحمد بن عبد الرحمن بن برد ، والمحاولة الثانية من سنة ٣٤٧ الى سنة ٤٢٤ وصاحبها غير معروف .

والحديث عن كتاب الولاة والقضاة يجرنا الى الحديث عن حقيقة المصادر التى نقل عنها الكندى مثل هذه المادة الغزيرة ، فقد اعتمد الكندى (كما يتبين من الدراسة الدقيقة لكتاب الولاة والقضاة) على مدونات مكتوبة مثل كتب ابن عبد الحكم ويحيى بن عثمان وابن عفير وغيرهم . فقد جرت العادة فى عصر

لكندى على تدوين الأحاديث ويكفى لاثبات ذلك الاشارات العديدة التى وردت فى الكتاب عن المجالس التى كانت تعقد لكتابة الأحاديث وعن قراءة الأحاديث ونسخها . وكانت كتابة الأحاديث وسيلة استحدثت فى البلاد منذ وقت بعيد ، اذ يستفاد مما كتبه الليث وابن لهيعة أن الكتابة فى تدوين الأحاديث شاعت فى مصر منذ منتصف القرن الثامن الميلادى والقصة التى سيقت عن حسين بن شفيع وكتبه المنسوبة الى عبد الله بن عمرو تدل على أن الكتابة التاريخية لم تكن موجودة فى القرن الأول ، أو على الأقل كانت نادرة ولم يكن ذلك لجهل بالكتابة انما لأن جمع الحديث بالصورة التى أصبحت مألوفة فيما بعد لم تكن قد وضحت بعد . لذلك نستطيع أن نؤكد أن أغلب روايات الكندى كانت مكتوبة قبل أن ينقل عنها فى مؤلفاته ، ونؤكد أيضا أن قدرا كبيرا منها كتب منذ مستهل القرن الثانى فصاعدا . ولم يكن كاتبوها يعنون كثيرا بزمن الحوادث التى يروونها . وكان تسجيل هذه الأحاديث يتخذ شكلين : شكل رقاع متفرقة ، وكان هذا دأب المحدثين عموما أو فى صورة كتب متكاملة . ويبدو أن الكندى استخدم وثائق من النوع الأول فى الاشارات التى نسبت الى يحيى بن عثمان وابن وزير . وهو فى كتاب القضاة يشير الى الديوان فى سنة ١٣١ هـ ويقتبس منه نقلا عن ابن بكير ولعل هذا يذكرنا بأرشيف الدولة الذى كان فى متناول الناس فى ذلك الوقت .

وظلت هذه السجلات [1] بعد الفتح يرجع اليها نحوا من قرنين من الزمان . كما كان الكندى يعتمد على أخبار تروى مشافهة ، وفى الحديث عن لقاء عثمان بن صالح وابن طاهر يتبين أنه منذ منتصف القرن الثامن الميلادى فان بعض الأخبار التى ترجع الى قرنين مضيا لا تزال تعيها الذاكرة ويتناقلها الرواة جيلا بعد جيل حتى عصر المؤلف .

ورغم أن الكتابين مصادرهما واحدة تقريبا الا أن هناك فرقا واضحا فى طريقة تأليف كل منهما وفى طريقة تناول الموضوعات .. فكتاب القضاة بصرف النظر عن الشعر الذى تضمنه ، يتألف كله من الأحاديث التى بلغ عددها نحوا من ٤٥٠ حديثا ، ويؤدى الكندى هنا دورا واضحا فهو مجرد راوية للحديث جامع له . وكانت مهمته الأولى تخير الأحاديث وترتيبها وتبويبها ووصل ما بينها أو التعليق على بعضها . ولا ننكر أن كتاب الولاة تضمن أحاديث لم تتجاوز المائة عددا ولكنه تضمن أيضا ما يقرب من ثلاثين فقرة مقتبسة ومنسوبة الى أصحابها بأسلوب يختلف عما اتبع فى كتاب القضاة ، وبقية الكتاب أو ما يقرب من ثلثيه عبارة عن مجرد سرد تاريخى لا يشار الى مصادره ، هذا السرد لا يظهر فى تاريخ الفترة التى تبدأ من الفتح حتى عام ٣٧ هـ ، اذ أن أخبار هذه الفترة

(١) رواة الكندى يطلعون على وثائق من ديوان بنى أمية منها براءة زمن مروان بن محمد فيها تحديد عطاء القاص عبد الرحمن بن سالم . انظر الكندى ص ٣٥٤

يسوقها على هيئة أحاديث أو روايات وأغلبها في هيئة فقرات قصار وكلما أوغل المؤلف في الكتابة كلما استقام السرد وطالت الفقرات وتضاءل مقدار الرواية أو الحديث .

والمهم ان تتعرف على أسلوب الكندى فى كتابة التاريخ اعتمادا على كتابه الولاة والقضاة وعلى المكانة التى يحتلها بين مؤرخى مصر الاسلامية خاصة ومؤرخى الاسلام عامة . ويكفى أن نذكر أن الكندى قمة لتطور هام فى فن كتابة التاريخ عند المسلمين . تطور بدأ فى منتصف القرن الأول الهجرى وظل يمضى الى غايته حتى وصل الى ما وصل اليه عند الكندى ومعاصريه . لأن الكندى فى الحقيقة قمة هرم قاعدته عريضة موغلة فى القدم . ويكفى أن تتفحص الرواة الذين اعتمد عليهم لنستطيع بدراستهم أن نترسم الخطا العريضة التى قطعها فن كتابة التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . ويتبين من فحص سلسلة الرواية عند الكندى أنها تصور الاتجاهات الهامة التى وضحت فى الدراسات التاريخية عند المسلمين منذ النصف الأول من القرن الأول الهجرى . فقد وضحت اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الأول مضى نحو كتابة مغازى النبى وسيرته ، وقد وضح هذا الاتجاه فى مدرسة المدينة المنورة . وأدت كتابة مغازى الرسول الى كتابة مغازى الراشدين ونشأت كتب فتوح الأمصار [1] . كما أن الكتابة فى السيرة أدت الى الكتابة فى سير الصحابة

---

(1) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ص ٦١ – ١٠٢

والتابعين الأمر الذى سجلته كتب الطبقات ابتداء من ابن سعد حتى البخارى . وكان أغلب المشتغلين بهذا الاتجاه قوم مدنيون وكلهم رواة حديث لا ينسب اليهم الكذب أو الوضع ، لأنهم كانوا يتحرون الدقة فيما ينقلون ، ويلاحظ فى كتابة المغازى فى هذا الوقت المبكر العناية بالاسناد الى أبعد الحدود والعناية بالحقيقة الى أبعد الحدود وأدى هذا الى جفاف الرواية وسلبيتها وخلوها من القصص المحبب الى النفس .

ثم كان الاتجاه الثانى وهو أسلوب القصص التاريخى الذى بدأه عبيد بن شرية الذى كان معاصرا لمعاوية بن أبى سفيان واستدعاه معاوية الى دمشق ليحضر مجالسه الأدبية ، وقد حدث معاوية كثيرا عن أخبار اليمانيين ووقائعهم وأيامهم ، وكانت طريقة عبيد بن شرية فى رواية القصص تقليدا لمنهج رواة أيام العرب فى تلوينهم القصصى بلون بطولى والمبالغة والجمع بين النثر والشعر فى صعيد واحد حتى ليرى النقاد أن كتاب عبيد ملحمة عربية جنوبية . واكتمل هذا القصص القديم المتأثر بقصص العبرانيين والنصارى على يد وهب بن منبه . وقد أثار ذلك كله اهتمام العرب بالتاريخ القديم وبسير البشرية كلها وأصبحت العناية بالتاريخ العالمى عنصرا هاما لم يتخل عنه المؤرخون أبدا وذلك لاحساسهم بظاهرة الاستمرار فى الحياة البشرية وأن تطور الحضارة يمسك أولها بآخرها . أما الاتجاه الثالث فهو يختلف عن الاتجاهين السابقين فقد نشأ فى العراق

وفى مدينتى البصرة والكوفة [1] بوجه خاص كما أن ميدانه اختلف عن الميادين السابقة ، فهو لا يعنى بالقصص القديم ولا يعنى بالمغازى والسير انما يعنى بأخبار القبائل العربية عامة وقبائل العراق خاصة أو العناية بالأنساب العربية عامة وأنساب البصريين والكوفيين خاصة . واشتغل بهذا الاتجاه النسابون الذين تخصصوا فى تاريخ القبائل العربية وأنسابها . ولعل هذا يتمشى مع التطور الجديد فى الحياة الاسلامية بعد نهاية عصر الفتوح . فقد نشأت أوطان عربية جديدة وأصبحت ليست أقل شأنا من نجد والحجاز واليمن .

ورغم هذا الانصراف الى ناحية معينة من الحياة العربية فان النسابين لم يهملوا المنهج التاريخي الذى تبنته مدرسة المدينة والذى انتشر فى العالم الاسلامى كله ونعنى به الاسناد وسلسلة الرواة والحرص على اثباتها حتى يكتسب الخبر طابع الجدية ويحمل الناس على تصديق ما يقولون . وكان هؤلاء مقدمة لظهور التواريخ المحلية للأمصار التى يتجلى فيها الاعتزاز بالاقليم بمدارسه ورجاله وقبائله وأنسابه .

وقد شهدت المدرسة المصرية فى كتابة التاريخ والتى تتمثل فى رواة الكندى ومؤرخيه هذه الاتجاهات جميعها بصورة أو أخرى ، فقد شهدت فن القصص ولكن على أسس مختلفة كثيرا عما عرفه عبيد بن شرية ووهب بن منبه ، فالقصص الذى ظهر بمصر يتعلق بتفسير القرآن وسيرة الرسول ، وكان القصص

---

(١) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ص ١١٨ - ١٢٠

فى الحقيقة على ثلاثة ألوان ، قصص قصد به الحديث عما جاء فى القرآن من ذكر الأمم القديمة ، وقصص قصد به ترغيب المؤمنين وترهيب المترددين وآخر قصد به ذكر الفتن والملاحم ، وأول من قص بمصر سليم بن عتر التجيبى الذى تولى قضاء مصر عام ٤٠ هـ زمن معاوية ، وكان يقص على الناس وهو قائم ، حتى لقد قال له صلة بن الحارث الغفارى الصحابى : « والله ما تركنا عهد نبينا ولا قطعنا أرحامنا حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا » [1] .

وقد وجد هذا الفن قبولا من المصريين لأنه يوافق طبيعتهم ، وظهر هذا الفن واضحا فى مستهل القرن الأول الهجرى .

واتجه بعض المصريين اتجاه أهل المدينة من الكتابة فى سيرة الرسول وسير الصحابة والتابعين وفى المغازى والوقائع والأيام . وقد وفد ابن اسحاق صاحب السيرة الى مصر فقرأ سير أهلها وروى السيرة التى كتبها حتى ان ابن هشام جاء مصر ليروى سيرة ابن اسحاق عن رواتها من المصريين ، ومن السير التى كتبها المصريون سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله ابن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية فى مصر فى القرن الثالث الهجرى .

وكما اتجه أهل العراق الى دراسة خطط البصرة والكوفة وأخبار القبائل والأنساب فقد اتجه المصريون اتجاها مماثلا

---

(١) الكندى ص ٣٠٤

بالكتابة فى الخطط وقام عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بدراسة خطط الفسطاط ومن نزل بها من العرب وأنسابهم ورجالهم وأيامهم . كل هذه الاتجاهات تتبين بوضوح وجلاء فيمن نقل الكندى عنهم منذ عام ٥٠ هـ حتى عصره ومنهم الزهرى والليث وابن لهيعة وأبو مخنف والهيثم بن عدى وابن عفير وربيعة الميسرى وابن وهب وأبو زرعة وسعيد بن أبى مريم وابن وزير ويحيى بن عثمان وابن صالح وابن عبد الحكم والطحاوى وابن قديد ومحمد بن الربيع الجيزى وأبو بشر الدولابى . وكل هؤلاء الرواة اما اشتغلوا بالقصص أو كتبوا فى السير أو عنوا بالأيام والوقائع والقبائل والأنساب والخطط .

ثم اكتملت المدرسة التاريخية فى أواخر القرن الثالث وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وكانت الأجيال العربية المتعاقبة تتبادل التجارب والخبرات ، يهيىء الجيل السابق لرسم معالم جيل جديد يسدد خطاهم وينمى خبراتهم ويستفيد من أخطائهم ، وكان جيل القرن الثالث وأول الرابع من كتاب المدرسة التاريخية قد استفادوا من تجارب مدرسة المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ، والتقت الاتجاهات كلها معا فى هذا العصر وأصبح الكتاب لا يهملون تقاليد المدينة ولا تقاليد العراق . وأصبحت لهذه المدرسة الجديدة اتجاهات أو سمات واضحة نجملها فيما يلى :

اتجهوا الى استخدام أسلوب المحدثين فى النقد والرواية والعناية بالاسناد أكثر من العناية بالخبر ذاته ، وأصبح رائدهم

أن تطرح الاقليمية الضيقة وأنه لا بد من الرحلة فى طلب العلم من الأمصار الأخرى شعورا بأهمية الخبرة المتجمعة لدى الأمة العربية وبأهمية الاجماع فى تناول الأخبار ، كما نلمح فى هذا العصر الاستفادة من الميراث السابق الى أبعد الحدود والاستفادة من مواد كتب السيرة والأخباريين وكتب الأنساب والمصادر الأخرى ، وكان عملهم فى هذه الفترة نقد المادة التى جمعها السلف استبعاد الخبيث وابقاء الطيب .

وكان أسلوب الكندى فى التأليف صورة صادقة لاتجاهات المدرسة الجديدة ، فقد كان راوية محدثا بالمحل الأول يعنى بالسند والرواية عناية ربما تفوق عنايته بالمتن نفسه . وهو سواء نقل الخبر من متن مكتوب أو من مصدر شفوى يقول : حدثنى ويسوق سلسلة الرواة فى أغلب الأحيان حتى الطبقة الخامسة الى أن ينتهى الى مستهل القرن الأول الهجرى فيقول مثلا : « حدثنى ابن قديد قال : حدثنى على بن عمرو بن خالد قال : حدثنى أسد بن ربيعة عن أبيه ... » فحرصه على السند والرواية لا يقل عن حرص الطبرى أو المسعودى أو البلاذرى . وهو فى كثير من الأحيان يقول حدثنى فلان وأحيانا يقول : أخبرنى فلان وأعتقد أن كل الأخبار التى يسبقها بكلمة حدثنى سمعها فى مجالس الحديث التى كانت تعقد فى مدينة الفسطاط ويحضرها الرواة والاخباريون . أما الأخبار التى سمعها بطريقة أخرى ، فكان يكتفى بقوله : « أخبرنى فلان » ، ويظل الكندى يحرص على الرواية ويسوقها منسوبة الى سندها حتى عام ١٩٩ هـ

اذ يختمه بقوله : « حدثني ابن قديد عن يحيى بن عثمان عن هارون بن سعيد قال : كان الناس قد تحدثوا أن اسحق بن يحيى عزم أن يثور بمصر فدخلت عليه فقال : أبلغك أنه من أراد بمصر سوءا أكبه الله لمنخريه » ، ويقـول « روفن جست » : والسبب فى هذا غير معروف ويعتقـد أن الكندى قد ظن أن أخبار الفترة التى رواها قد ذكرت من قبل فى كتاب ألفه هو أو ألفه آخرون . أو وجـد من الأهم أن ينقل عن المصـادر الأصلية بقدر ما وسعه ذلك . وان كنت أعتقد أنه أهمل السند فيما بعد سنة ١٩٩ هـ فى الفترة القريبة من عصره وكلها أخبار جمعها هو بنفسه ولم يروها عن أحد بل أصبح هو رواية لها تنسبها اليه فى الأجيال التى أتت من بعده ، وقد فعل هـذا بكتاب الولاة فقـط . أما فى كتاب القضـاة حيث التشريع والحديث وعلوم القرآن ، فقد حافظ على السند حتى سنة ٣١٢ تقريبا وهى السـنة التى كان فيها قد بلغ الثلاثين من عمـره واعتمد فى سـوق أخبار القضاة المعـاصرين له على تجاربه وحدها .

والكندى فوق هذا وذاك صورة لظواهر أخرى شهدتها المدرسة التاريخية فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى والنصف الأول من القرن الرابع وهى نشأة مؤرخى الأمصار المعنيين بتراثها وسرد أخبارها المتحدثين عن قبائلها وأنسـاب أهلها والترجمة لمحدثيها وقرائها وفقهائهـا وعلمائها . فما هى التواريخ المحلية ؟ وما الظروف التى ساعدت على ظهورها وكيف

نشأت وما مكانة الكندى بين المؤرخين المحليين ، ويجب أن تتعرف على النزعة المصرية فى موسوعة الكندى الكبيرة .

بعد أن كان المؤرخون يعرضون لأخبار العالم الاسلامى جملة . نشأت طائفة جديدة منهم تؤرخ للأمصار الاسلامية المختلفة ، فتتحدث عن تاريخها القديم وتعرض لظروف فتحها أو تؤرخ لمدارسها ومحدثيها وقضاتها وتصف أمهات مدنها ، وتتحدث عن أوجه نشاطها المختلفة . وهنالك ظروف عدة دعت إلى هذا النوع من التخصص فى كتابة التاريخ منها :

١ ــ ان الفقهاء والقضاة ورجال الدولة كانوا فى حاجة الى معرفة أخبار الأمصار الاسلامية ، أيها فتح صلحا وأيها فتح عنوة. لأن نوع هــذا الفتح كان يترتب عليه تحديد مقدار الخراج ومقدار الجزية .

٢ ــ تدوين الحديث والعناية بجمعه منذ القــرن الثالث الهجرى جعل المشتغلين بهذا العلم يعملون على أن يضعوا حداً للظاهرة التى شاعت منذ القرن الثالث وهى افتعال الأحاديث ووضعها وتزييف سندها واختراع أسماء وهميين ونسبتهم الى أقاليم وهمية . فعمد بعض علماء الحديث الى كتابة متون فى المحدثين الذين ينسبون الى كل مصر من الأمصار حتى يستطيع علماء الحديث الذين يأتون من بعدهم أن يميزوا بين الأسماء الصحيحة والموضوعة .

٣ ــ ازدهرت الثقافة الإسلامية منذ القرن الثالث فصاعداً ولم تعد المدارس قاصرة على دمشق أو بغداد ، انما انتشرت فى

جميع الأمصار الاسلامية . رحل اليها الطلاب والعلماء ، فوجد نوع من التنافس بين هذه المدارس وخصوصا فى رواية الحديث . وهذا التنافس أدى الى أن تبادر كل مدرسة الى تدوين أخبارها وكتابة أسماء علمائها وأحاديثهم وسيرهم وفضائلهم .

٤ ـ أخذت الدولة الاسلامية منذ القرن الثالث الهجرى يدهمها التفكك والانحلال ، ونمت شخصيات الأقاليم ، وظهرت القوميات الاسلامية المختلفة واستقل بعض الأمراء بهذه البلاد ، وأصبح كل أمير حريص على أن تدون أخبار بلاده . كما عكف المؤرخون ارضاء لهذه التطورات الجديدة على الاقبال على هذه التواريخ المحلية تحقيقا لهذه الرغبات .

هذه التواريخ المحلية يمكن تقسيمها قسمين كبيرين : قسم غير دينى وقسم آخر دينى صرف .

القسم الأول تأثر المسلمون فى كتابته بنماذج قديمة نشأت فى سورية فى العهد البيزنطى [١] حين كتب المؤرخون القدماء تاريخا لانطاكية وتاريخا للقسطنطينية . كما وجد مثل هذا النوع أيضا فى الأدب السريانى القديم . كما تأثر المسلمون أيضا بالأدب الفارسى الذى عرف هذا النوع من التواريخ المحلية .

---

(١) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين صفحات ٩٥ ـ ١٣٩

وقد كتب فى تاريخ العراق منذ القـــرن الثالث الهجرى كتابان : تاريخ بغداد لأحمـــد بن أبى طاهر طيفور ، وتاريخ الموصل لأبى زكريا الأزدى . ويبدو أن أحمد بن أبى طاهر كان يريد لكتابه أن يكون تاريخا للعباسيين الذين اتخذوا بغداد حاضرة لهم . غير أن عرضه التاريخى كان مصحوبا بدراسة طبوغرافية لحاضرة الدولة العباسية .

ويشبه هذا النوع من التواريخ المحلية ما كتبه أبو زكريا عن الموصل من سنة ١٠١ هـ الى سنة ١٢٤ هـ ، اذ عنى بولاة المدينة وأعمالهم كما عرض لعلمائها ووفياتهم ، كما أشار لبعض النواحى الاقتصادية حينما تحـــدث عن المجاعة التى حدثت بالموصل .

واذا كان تاريخ العراق الاسلامى قد كسف أمجاده الغابرة الا أنه فى مصر حدث العكس . فقد ظلت ذكرى الأمجاد الغابرة عالقة بالأذهان وأخذت هذه الذكرى تعبر عن نفسها فى كتب اقليمية مثل ما كتبه ابن زولاق عن فضائل مصر وخواصها . استهل كتابه هذا بذكر ما ورد فى القرآن والحديث عن مصر ثم تحدث عن الحضارة والفلسفة الاغريقية . ثم عرض لأخبار مصر قبل الاسلام حتى الفتح ، ثم تحدث عمن أسلم من المصريين وعن الأسرات الهاشمية ثم تحدث عن الخطط والزراعة والصـــناعة والتقويم القبطى .

وقد نسج على منواله مؤرخون آخرون مثل المسبحى وابن ميسر ومحمد بن القاسم النويرى .

وظهرت فى بلاد الشام أيضا تواريخ محلية منذ القرن الرابع الهجرى فقد كتب ابن القلانسى عن دمشق وابن العديم عن حلب .

وقد اتجه التاريخ المحلى وجهة جـديدة نحو التعبير عن حاجة الاقليم وآماله مثل ما حدث فى بلاد اليمن حيث سادت ذكريات التاريخ القديم .

وخلفت بين أهل اليمن شعوراً فريداً بالقومية ، فنشأ نوع من التاريخ مزيج من الخطط والثقافة والتـاريخ والأنساب ، يتمثل فيما كتبه الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، وخصـوصا كتابه الشهير المعروف بالأكليل فى تاريخ الدولة الحميرية ، اذ عنى بالآثار والجغرافيا والتاريخ ، وقد سار فى نفس الطريق جياش بن نجاح فى كتابه تاريخ زبيد .

ولم تحرم بلاد الأندلس والمغـرب من هـذا النوع من التواريخ المحلية ممثلا فيما كتبه أحمد بن محمـد الرازى عن تاريخ قرطبة وأبو العرب تميم عن القيروان .

وقد ازدهر هذا النوع من التاريخ على الخصوص فى ايران حيث وصلت النعرة القومية الى الذروة وأخذ الكتاب الفرس يتغنون بفضائل بلخ وخراسان ، فكتب حمزة الأصفهانى تاريخ أصفهان وظهر كتاب تاريخ مدينة قم لحسن بن محمد القمرى .

ويدخل فى نطاق هـذا النوع من التواريخ المحلية كتب تعـرض للولاة والقضاة فى قطـر من الأقطار وتتخصص فى أخبارهم وحدها ، ولا تكتفى باشارات عابرة كما فعل الفاكهى

فى تاريخ مكة أو ابن عبد الحكم فى فتوح مصر . ومن هـــذه الكتب المتخصصـــة فى الولاة والقضـــاة كتاب ولاة الكوفة وقضاتها وما كتبه الهيثم بن عدى عن المحتسبين فى العراق . وكتاب الكندى عن الولاة والقضاة والسلامى تاريخ الولاة فى خراسان .

يدخل فى هـــذا القسم غير الدينى ما كتب عن الفتـــوح الأسلامية . هذه الموضوعات التى اســـترعت أنظار المؤرخين الأوائل بسبب حاجة القضاة والخلفاء الى معـــرفة أخبار البلاد التى فتحت صلحا أو عنوة ، فوجدت طائفة تختص باقليم معين تتحدث عن فتوحه وتقدم لذلك بمقـــدمة عن أخبار الاقليم فى الزمن الماضى .

ظهرت هـــذه الخطوة منذ القرن الثالث الهجرى على يد ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر وما كتبه الواقدى والبلاذرى وما كتبه ابن القوطية والرازى .

القسم الثانى وهو النوع الدينى من التواريخ المحلية فإنه بدوره ينقسم الى قسمين متمايزين لكل طريقته فى الكتابة القسم الأول يتمثل فى التأريخ للحرمين مكة أو المدينة ، مثل ما كتبه الأزرقى والفاكهى . ولم يكن يعنيهما التاريخ للأشخاص أو الترجمة لهم ، انما كل همهما أن يتيحا للمسلمين معرفة وافية بالتاريخ الدينى للمشاعر المقدسة . وقد ظل هذا الطابع غالبا على ما كتب عن المدينتين حتى القرن الرابع عشر الميلادى . أما

النوع الثـــانى من كتب التاريخ المحلى الدينية فله طابع آخر يميزه ، ذلك أن مؤلفى ذلك النوع كانوا يقـــدمون بمقدمة طبوغرافية ثم يتحدثون بعدها عن الأشخاص الذين ولدوا أو استقروا فى مدينة بعينها ثم يعرضون للمحدثين والفقهاء . ثم اتســـعت الدائرة فشملت العلماء والحكماء والشـــعراء وذوى النباهة . وأقدم ما ألف فى هذا الباب تاريخ واسط الذى تتمثل فيه طبيعة هذا النوع من التأليف أصدق تمثيل ، فهو يعـــرض لتاريخ واسط القديم ثم يتحدث عن مدارسها وعلمائها ، وهو يرتبهم طبقـــات قربا أو بعداً من الرســـول ، وهو لا يترجم للأشخاص الا قليلا ، انما يكفيه أن يعدد الأسماء ويذكر ما روى من الحديث والغرض الذى قيل فيه الحديث .

لكن هذا النوع من التأليف اتسع نطاقه بعض الشىء فيما بعد ، فلم يعد المؤلف يعنى برواية حديث لكل مترجم له انما أخذ يعنى بالترجمة للأسماء ترجمـــة وافية وعدل عن ترتيب العلماء طبقات وبدأوا يرتبونهم أبجديا أحيانا أو طبقات أحياناً أخرى .

فكتاب الكندى اذن نموذج جيد لهذا النوع غير الدينى الذى أشرنا اليه من كتب التاريخ المحلى .

والنزعة المصرية فى هذا الكتاب واضحة غاية الوضوح ، فالمؤرخ نفســـه يصر على أن ينسب نفســـه فيقول الكندى المصرى ، كما أنه أقام فى الفسطاط دهره كله فلم يغادرها الى

غيرها من البلاد وان كان هذا لم يمنع من أن يلتقى بالوافدين على الفسطاط من علماء الشرق المشاهير ، ثم هو يعرض للولاة فى مصر وأخبارهم المحلية . ولا يروى من الأحاديث الا ما تواتر على ألسنة الرواة المصريين ولا ينتقى من الشعر الا ما قيل فى مصر أو عن مصر . ولا يتحدث الا عن العرب فى مصر أنسابهم وعلاقاتهم ونشاطهم القبلى ودورهم السياسى . وكذلك شأنه فى كتابه تاريخ القضاة فهو ترجمة أمينة دقيقة لمدرسة الفسطاط منذ نشأتها الأولى حتى السنة التى مات فيها أو التى توقف عن الكتابة فيها . وهو تتبع دقيق لكل نواحى الحيـــاة الفكرية للمحدثين والفقهـــاء والقراء والنحويين واللغـــويين . ثم نكاد نحس من هذا الشيخ المصرى تعصبا لهذا الاقليم الذى استقر فيه أجداده من قبل واستوطنوه وأصبح لهم ولذراريهم داراً ومقاما . وقد وردت فى ثنايا ما كتبه الكندى بعض الروايات التى تدل على تفضيله لمصر وعصبيته لها من ذلك ما ورد على لسان الكندى قوله « حدثنى ابن قديد عن يحيى بن عثمان عن هارون بن سعيد قال : كان الناس قد تحدثوا أن اسحق بن يحيى عزم أن يثور بمصر فدخلت عليه فقال : أبلغك أن من أراد مصر بسوء أكبه الله لمنخريه » [١] .

وبعد فكتاب الولاة والقضاة ثروة عظيمة الأثر فى دراسة

---

(١) الكندى ص ١٩٩

الحياة العربية فى مصر منذ الفتح العربى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . وقد أظهر الكندى فيه ثقافة موسوعية عظيمة تعلى من مكانته بين أعلام المفكرين المعاصرين، فقد تضمن من الأحاديث نحواً من خمسماية وخمسين حديثا تضمن كتاب القضاة منها أربعمائة وخمسين حديثــا ، وتضمن كتاب الولاة نحو مائة منها . وهى أحاديث موصــولة السند حتى طليعة الرواد المسلمين من رجال القرن الأول الهجرى . وكلها منقولة عن رواة مصريين كانت لهم مكانتهم فى علوم الحديث ، كما اقتبس الكندى من نحو ثلاثماية وخمسين قصــيدة فى كتاب الولاة ونحواً من ٢٠٠ قصيدة فى كتاب القضاة . وبلغ مجموع الأبيات التى اختارها واستشهد بها نحو ٦١٩ بيتا تضيف الى تراثنا الأدبى الشيء الكثير .

ولعل خير ما يظهر هذه الثقافة الواسعة وهذه القيمة الكبرى التى يحتلها كتاب الولاة والقضاة أن تتحدث بالتفصــيل رواة الكندى ومؤرخيــه وأن نبين أهميتهم وأن نعرف فالكتاب فى الحقيقة مكتبة كبيرة لتاريخ هذه البلاد .

ويبلغ عدد الرواة الذين وردوا فى اسناد الولاة أو القضاة نحواً من ثلاثماية وعشرين وعدد الأشخاص فى كل سلسلة اسناد بين خمسة وثلاثة .

والكندى ينقل مباشرة عنه نحو سبعين من الرواة ثم يأخذ عن عدد أكبر ممن روى عنهم . ثم يتســع نطاق الرواية بعد ذلك . وأغلبية الرواة يذكرون مرة أو مرتين ، وبعضهم الآخر

يرددون فى كل مناسبة . وسنحاول أن نذكر أهم هؤلاء الرواة مرتبين طبقات بعداً أو قربا من الكندى ووفقـا لمكانتهم من الاسناد وفى داخل كل طبقة سنعرف بأكبر الرواة شأنا وبأقلهم أهمية .

الطبقة الأولى من رواة الكندى :

١ ـ الطحاوى [1] : أحمد بن محمد بن سلامة ، أبو جعفر الأزدى . كان من أقرباء المزنى أشهر تلاميذ الشافعى ولكنه ترك الشافعى وتزعم المدرسة الحنفية ، وعمل كاتبا للقاضى محمد ابن عبده الذى ولى القضاة من سنة ٢٧٧ الى سنة ٢٨٣ هـ .

وقد ألف عدة كتب ضاع أغلبها وكتب عن الولاة الى ثورة جدة فى صـعيد مصر المدعو سـلامة بن عبد الملك الأزدى الطحاوى وقتل سنة ٢٠٤ هـ . وقد أشير الى الطحاوى مرتين عن طريق ولده على .

٢ ـ ابن قديد : على بن الحسن بن خلف ، أبو القاسم الأزدى الذى ولد سـنة ٢٢٩ وتوفى سنة ٣١٢ . وكان من أشهر رواة الحديث وسمع من محمـد بن رمح . ويشير ابن دقماق الى المكانة العظيمة التى يتولاها ابن قديد عام ٣١١ هـ أى قبل وفاته بسنة . وقد قيل آن ابن قديد كان عنده مصحف عقبة بن عامر الذى يختلف عن مصحف عثمان .

---

(١) الفهرست ص ٢٩٢

وكان أستاذ الكندى فى علم الحديث وروى عنه نحواً من نصف أحاديث كتاب الولاة ، وثلث أحاديث كتاب القضاة . ولم يحتل راو غيره مثل هذه المكانة ، وابن قديد يروى الحديث عن مصدرين : ابن عفير عن طريق ولده عبيد الله ويحيى بن عثمان صالح .

٣ ـــ الحسن بن محمد المدينى : يبدو أنه ولد فى مكان ما سنة ٢٢٠ هـ لأنه يروى عن ابن بكير المتوفى سنة ٢٣١ هـ . ولو كان عاش حتى الثمانين لروى الكندى عنه مباشرة . ويروى قلة من الأحاديث عن ابن بكير وعن الليث .

٤ ـــ أبو سلمة أسامة بن عبد الرحمن التجيبى : ولد قبل سنة ٢٥٠ هـ وتوفى عام ٣٠٧ هـ ، وكان من أكثر رواة الحديث ومن شيوخه السرح المتوفى سنة ٢٥٠ هـ وابن وزير المتوفى سنة ٢٦٥ هـ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ والحارث ابن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ هـ . وروايات أبى سلمة تنقسم قسمين : أحاديث مروية عن يحيى بن عثمان بن صالح وأخرى مروية عن ابن عبد الحكم ، وكل أحاديث ابن عبد الحكم منقولة عنه .

٥ ـــ يحيى بن أبى معاوية التجيبى : روى الكثير من الأحاديث عن ربيعة بن الوليد بن سليمان .

٦ ـــ الحسين بن يعقوب التجيبى : وهو عم الكندى وكان يروى عن ابن وزير .

٧ ــ أحمد بن داود بن أبى صالح : يروى عن ابن وزير عن طريق ابن أخضر .

٨ ــ محمد بن موسى الحضرمى : يروى بعض الأحاديث عن ابن لهيعة .

ومن هذه الطبقة رواة آخرون منهم :

أحمد بن الحارث بن مسكين أبو بكر ، ولد سنة ٢٣٨ وتوفى سنة ٣١١ ، وهو ابن أحد مشاهير القضاة فى مصر .

وأبو بشير الدولابى المتوفى سنة ٣١٠ ، وعبد الرحمن ابن اسحق بن معمر ولد سنة ٢٥١ وتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

ومحمد بن الربيع الجيزى ولد سنة ٢٣٦ وتوفى سنة ٣٢٤ وكان أبوه من أصحاب الشافعى وتوفى سنة ٢٥٦ ، ومحمد ابن زبان بن حبيب الحضرمى ولد سنة ٢٢٥ وتوفى سنة ٣١٧ هـ ، وابن أبى الحديد وعوت بن المزارع المتوفى سنة ٣٠٤ هـ ، وكان أخباريا من أهل البصرة .

الطبقة الثانية من رواة الكندى :

١ ــ أبو الرقراق : أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، ولعله أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن جعد الوشاء المتوفى سنة ٣٠١ هـ وقد نقل الكندى عنه مرة واحدة ، وهو يروى عادة عن ابن بكير .

٢ ــ ابن أخضر : محمد بن أبى المغيرة ، وهو عادة يروى عن ابن وزير وأحمد بن داود بن صالح .

٣ ـ أبو خيثمة : على بن عمرو بن خالد ، وقد كتب أبوه للقاضيين البكرى وابن الجراح ، وقد مات سنة ٢٢٩ هـ .

٤ ـ عبيد الله بن عفير : عبيد الله بن سعيد بن كثير بن عفير الأنصارى وهو واسطة فى الرواية بين أبيه وابن قديد وتنسب اليه أحاديث كثيرة فى الولاة والقضاة .

٥ ـ خلف بن ربيعة بن الوليد بن سليمان الحضرمى . وهو يروى عن أبيه .

٦ ـ احمد بن يحيى بن وزير التجيبى المتوفى سنة ٢٦٥ هـ . تعلم الفقه على ابن وهب ، وروى النسائى أحاديث كثيرة عنه ، وكان عالما بالفقه والشريعة والشعر والتاريخ ، وقد نسب الكندى اليه روايات كثيرة نقل بعضها عن ابن بكير .

٧ ـ يحيى بن عثمان بن صالح السهمى ، أبو زكريا : وهو يذكر أنه شهد موضوع سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس بين سنتى ٢٢٦ و ٢٣٠ وهو أيضا يروى عن أبيه الذى مات سنة ٢١٩ هـ . لذلك فان تاريخ مولده لا يمكن أن يكون قبل سنة ٢١٠ هـ ، وقد توفى سنة ٢٨٢ هـ . ويقال انه روى أحاديث انفرد بها دون سواه . وكان يجمع الأخبار من مصادر متعددة وأربعة أخماس الأحاديث المنسوبة اليه انتقلت الى الكندى عن طريق بن قديد ، وفى أكثر من موضوع يشير ابن قديد أنه نقل من رقاع يحيى بن عثمان « حدثنى ابن قديد أنه انتسخ من رقاع يحيى بن عثمان بن صالح بخطه » . وفى بعض الأحيان الأخرى ينقل ابن قديد من كتاب ليحيى بن عثمان ويذكر أن

الكتاب بخط يده « أخبرني ابن قديد عن كتاب يحيى بن عثمان بخطه » .

٨ ـ ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، أبو القاسم ، المتوفى سنة ٢٥٧ وهو المؤرخ المصرى المشهور ، وكتابه أقدم ما وصل الينا حتى اليوم ، وكان ابن عبد الحكم ينتسب الى أسرة من أعرق الأسرات فى تاريخ مصر فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وأبوه عبد الله ولد سنة ١٥٠/١٥٥ هـ [١] وتوفى سنة ٢١١ هـ ، وخلف أشهب فى رئاسة المدرسة المالكية فى مصر ويبدو أن أخا له يدعى محمدا قد احتل هذا المنصب واشتهر علمه وفقهه ، وبرز فى هذا الميدان أخوان له هما عبد الحكم وسعد ، وقد ألف عبد الله كتابا فى الفقه وألف محمد كتبا كثيرة كلها فى الفقه ، وقد تعرضت الأسرة لمحنة كبيرة فى سنة ٢٣٧ هـ . وكانوا قبل ذلك بعشر سنوات قد أصيبوا فى محنة خلق القرآن فى عهد الواثق . ولعله فى هذا الوقت بالذات حمل محمد الى بغداد ليمثل أمام قاضى القضاة ورفض أن يستجيب وأعيد الى مصر ، وبعد ذلك بنحو سنة اتهمت الأسرة باغتصاب مال لعلى بن عبد العزيز الجروى ، ويبدو أن الكندى كان يعرف كتاب ابن عبد الحكم فتوح مصر وكان ابن قديد أستاذ الكندى أحد الرواة عن عبد الرحمن ابن عبد الحكم .

---

(١) الفهرست ص ٢٨١

٩ ــ ابن السرح : أحمد بن عمرو بن السرح ، أبو الطاهر مولى بنى أمية ، يبدو أنه ولد حول سنة ١٧٠ هـ لأنه يصف الفضل بن فضالة بقوله : « رأيت الفضل وأنا صبى ، رجل أبيض عليه وفرة جسيم كأنه من رجال المغرب يعتم بعمامة سوداء على قلنسية طويلة » ، وقد مات ابن السرح سنة ٢٥٠ هـ وقد روى عنه أغلب أصحاب كتب الصحاح عدا البخارى .

١٠ ــ ابن بكير : يحيى بن عبد الله بن بكير أبو زكريا المخزومى ولد سنة ١٥٤ هـ ومات سنة ٢٣١ هـ ، وكان من أخلص أصدقاء القاضى العمرى (١٨٥ ــ ١٩٤) ، ودخل الحبس بسبب ذلك سنة ١٩٤ هـ ، وهو على كل حال من أفضل أهل مصر وكان له الرأى الأول عندما عقد ابن طاهر مجلسا لاختيار أحد القضاة .

ومن رواة هذه الطبقة أيضا : أحمد بن سعد بن أبى مريم (ت . ٢٥٣) ، والحارث بن مسكين قاضى مصر (ت . ٢٥٠) ، وحرملة بن يحيى التجيبى (ت . ٢٤٤) ، والربيع الجيزى (ت . ٢٥٦) ، وعيسى بن لهيعة بن عيسى ، تولى القضاء سنة ٢٣٧ . ومحمد بن داود بن أبى ناجية المهرى (ت . ٢٥٠) ، ومحمد ابن رمح التجيبى (ت . ٢٤٢) . وهارون بن سعيد الأيلى (ت . ٢٥٣) ، ويحيى بن أيوب العلاف الخزرجى (ت . ٢٨٩) .

الطبقة الثالثة من رواة الكندى :

١ ــ ابن عفير : سعيد بن كثير بن عفير ، أبو عثمان الأنصارى ولد سنة ١٤٦ وتوفى سنة ٢٢٦ ، كان يروى الحديث

عن مالك ، فقيهـا عالما بالأنساب والتاريخ والشـعر ، وذكر السيوطى أنه تولى القضاء . قال ابن طاهر : أعاجيب مصر ثلاثة النيل والأهرام وابن عفير . وذكر المقريزى حديثا جرى بينه وبين المأمون عندما زار مصر سنة ٢١٧ هـ . والسيوطى يضعه فى قمة مؤرخى مصر الاسلامية وقد وردت فى الولاة والقصاة أحاديث كثيرة منسوبة اليه ، وكان يروى عن ابن لهيعة وعن غيره .

٢ ــ عثمان بن صالح بن صفوان أبو يحيى السهمى المتوفى سنة ٢١٩ هـ . وكان محدثا مشهورا . أشار اليه صاحب الخطط بمايلقى الضوء على الطريقة التى كان يكتب بها التاريخ فى مصر ، فالمقريزى ينقل عن أبى خليفة حميد بن هشام البحترى تفاصيل عن البقط المفروض على أهل النـوبة وذلك برواية عثمان بن صـالح .

٣ ــ ربيعة بن الوليد بن سليمان الحضرمى : ابن عم غوث ابن سليمان ، ولى القضاء ثلاث مرات بين سنة ١٣٥ و ١٦٨ ، ويبدو من نصوص الكندى أنه كان ذا أهمية خاصة فى مصر فى سنة ١٨٨ وأنه عاش حتى سنة ٢٠٤ ، وكان ربيعة وأبو الوليد من رواة الأحاديث التى وردت فى كتاب القضاة .

٤ ــ عبد الله بن يوسف التنيسى : المتوفى سنة ٢١٨ هـ وهو يروى بعض الأحاديث عن ابن لهيعة .

٥ ــ الميسرى : عبد العزيز بن عبـد الرحمن أبى ميسرة الحضرمى ، وأبو عبد الرحمن بن ميسرة مولى من حضرموت ،

ولد سنة ١١٢ هـ ومات سـنة ١٨٨ وهو أول من علم طريقة نافع فى القراءة فى مصر .

٦ ـ ابن وهب : عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى ولد سنة ١٢٤ هـ ومات سنة ١٩٧ وكان فقيها ومحدثا ومن أبرز تلاميذ مالك رحل اليه سنة ١٤٨ وبقى فى المدينـة حتى مات الامام ، وألف كتابين فى الحديث ، وقد أجبر على تولى القضاء فى مصر سنة ١٩٦ ولكنه رفض .

ومن رواة هذه الطبقة أيضا ـ ابراهيم بن أبى أيوب عاش من سنة ٢٣٧ الى سنة ٢٤٥ وابراهيم بن عليـة وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت . ٢٦٤) واسحق بن الفرات (ت . ٢٠٤) وسعيد بن أبى مريم ولد سنة ١٤٤ وتوفى سنة ٢٢٤ وقد ألف ثلاثة كتب فى التاريخ أشار اليها ابن النـديم . وشعيب ابن الليث بن سعد (ت . ١٩٩) ، وأبو زرعة عبد الأحد الليث القتبانى ، وعبد الله بن يزيد المقرىء (ت . ٢١٣) وعلى ابن معبد بن شداد (ت . ٢٧٣) ، وفضالة بن الفضل ، ونصر ابن مزاحم .

الطبقة الرابعة من رواة الكندى :

١ ـ عبد الرحمن أبو الميسرى .

٢ ـ المفضل بن فضالة ، أبو معاوية الرعينى القتبانى ولد سنة ١٠٧ وتوفى سنة ١٨١ ، ولى القضاء مرتين مرة سنة ١٦٨ وأخرى سنة ١٧٧ وكان مالكيا تقيا ورعا .

٣ ــ الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث الفهمى ، ولد سنة ٩٤ وتوفى سنة ١٧٥ وأسرته من أصفهان ولكن الليث نفسه ولد فى قلقشندة بمصر وكان أبرز رجال عصره فى العلم رحل الى مكة سنة ١١٣ وبيت المقدس سنة ١٤٠ وبغداد سنة ١٦١ ثم الى بغداد مرة أخرى سنة ١٦٩ ولقى عددا كبيرا من التابعين وروى الأحاديث عنهم ، ومن شيوخه : يزيد بن حبيب وعبيد الله بن أبى جعفر ، وكان على صلة بالامام مالك ويعتبره البعض أعرف من مالك فى الفقه . ويقال انه أنشأ مذهبا أهمل فيما بعد . واشتهر الليث فى صدر شبابه فقد عهد اليه الوليد بن رفاعة ببعض المناصب وهو فى الرابعة والعشرين من عمره واختير سنة ١٢٨ هـ مؤدبا لأحد الأمراء ، ونعم برضا الخليفة العباسى واعتزل القضاء ، ولم يكن الولاة يقطعون أمرا دونه . وكان الخلفاء يعزلون القاضى اذا غضب عليه الليث . وكان حريصا فى جمع أحاديثه وروايتها يتجنب التدليس فى الاسناد ، وقد مدحه مالك والشافعى وابن حنبل ، وكان يستخدم الكتب والمدونات . وقد بدأ الليث يدون الأحاديث منذ صباه ، وكانت لديه كتب بالأحاديث التى جمعها وكان يعتمد على الذاكرة ، وله كتاب المسائل وكتاب التاريخ الذى أشار اليه صاحب الفهرست ، وهو من أهم مصادر كتاب الولاة . ومن الرواة ولداه شعيب ويس ، ومن أحفاده عبد الملك بن شعيب .

٤ ــ ابن لهيعة : عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن لهيعة بن

فرعان أبو عبد الرحمن الحضرمى الغافقى ولد سنة ٩٦ ومات سنة ١٧٤ وكان معاصرا لليث ، وأصله من حضرموت ، وكان لهيعة أبوه المتوفى سنة ١٠٠ هـ من أشهر التابعين فى مصر ، ويبدو أن قبيلته جاءت مصر مع الفتح وقد صحب الليث فى حجه الى مكة سنة ١١٣ هـ وقد لقى عـددا كبيرا من التابعين وكان مغرما بجمع الأحاديث وكان يضـع خريطة حول رقبته يجمع فيها الأحاديث لذلك سمى « أبا خريطة » . وكان من شيوخه يزيد بن أبى حبيب وكان ثقة عند البخارى والنسائى وابن سعد شك فيه فى بعض الأحيان فى حين وثق به الأوزاعى والثورى وابن وهب ، وقد اتهم بالتدليس فى الاسناد ونسبة الأحاديث الى نفسه ، وكان يألف الكتابة وقد أشار الكندى الى الحريق الذى شب فى منزله سنة ١٧٠ وأثنى على كتبه .

٥ ــ الوليد بن سليمان الحضرمى .

ومن رواة هذه الطبقة أيضا : ابراهيم بن نشيط الوعلانى (ت. ١٦٢) . وبكر بن مصر (ولد سنة ١٠١ وتوفى سنة ١٧٤) وحرملة بن عمران التجيبى ولد سنة ٨٠ وتوفى سـنة ١٦٠ ، وحيوة بن شريح المتوفى سنة ١٥٨ ، وخالد بن حميد المهرى (ت . ١٦٩) . وسعيد بن أبى أيوب الخزاعى (ت . ١٦١) ، وسفيان بن عيينة توفى سنة ١٩٨ ، وطلق بن السمح (ت . ٢١١) وعبد الله بن المسيب العدوى (ت . ١٧٠) ، وغوث بن سليمان الحضرمى (ت . ١٦٨) ، وعبد الله بن المبارك (ت . ١٨١) ، وأبو مخنف لوط بن يحيى وهو المؤرخ المشهور الذى أشار

اليه الطبرى ، وقد ألف فى التاريخ وتوفى سنة ١٣٠ هـ ، وابن أبى مليكة عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله (ت . ١٢٧) وموسى ابن على اللخمى (ت . ١٦٣) ، والهيثم بن عدى الطائى (ت . ٢١٠) ، ومحمد بن عمر الواقدى (ت . ٢٠٧) ، ويحيى بن أيوب الغافقى (ت . ١٦٣) .

الطبقة الخامسة من رواة الكندى :

١ ــ عبد الكريم بن الحارث الحضرمى (ت . ١٣٦) فى برقة ، ويذكر السيوطى أنه كان أستاذ الليث ، وقد روى الليث عنه خمسة أحاديث .

٢ ــ الحارث بن يزيد الحضرمى : والد عبد الكريم (ت . ١٣٠) فى برقة .

٣ ــ عبيد الله بن أبى جعفر : مولى بنى أمية ولد سنة ٦٠ هـ ومات سنة ١٣٢ هـ وكان معاصرا ليزيد بن أبى حبيب .

٤ ــ يزيد بن أبى حبيب : أبو رجاء مولى الأزد ولد سنة ٥٣ ومات سنة ١٢٨ ، وكان نوبى الأصل ، وكان أبوه سويدا قد أسر فى حملة دنقلة سنة ٣١ هـ وكان يزيد عبدا لشريك بن الطفيل العامرى ثم أعتقه ، وقد لقى عبد الله بن الحارث آخر صحابى بقى بمصر ، كان فريد عصره فى الفقه وأول من بين الحلال والحرام بعد أن كان رواة الحديث قبله يعمدون الى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن . كان أحد من عهـد اليهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بالفتيا فى مصر ، وقد اغتاظ العرب لتفوق

هذا المولى . وكان أهم من تنسب اليهم الأحاديث التى وردت فى كتاب الولاة .

ومن رواة هذه الطبقة أيضا : جعفر بن ربيعة (ت . ١٣٦) تولى الفتيا مع يزيد بن أبى حبيب فى عهد عمر بن عبد العزيز والحجاج بن شداد الصنعانى المتوفى سنة ١٢٦ والحسن بن ثوبان الهوزنى المتوفى سنة ١٤٥ وسعيد بن يزيد القتبانى المتوفى سنة ١٥٤ وابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وعلى بن ربيعة اللخمى المتوفى سنة ١١٤ هـ وعمرو بن دينار المكى المتوفى سنة ١٢٦ هـ ، وأبو فارس يزيد بن رباح المتوفى سنة ٩٠ هـ وأبو قابيل المعافرى المتوفى سنة ١٢٨ هـ ومجالد المتوفى سنة ١٤٤ هـ ، ونافع بن يزيد الكلاعى المتوفى سنة ١٦٨ ، ويونس ابن يزيد الايلى المتوفى سنة ١٥٩ .

الطبقة السادسة والسابعة من رواة الكندى :

وهم من الصحابة والتابعين :

١ ــ حسين بن شفى بن مطيع الأصبحى المتوفى سنة ١٢٩ ، وكان حيوة بن شريح يزوره مرة فوجده فى غاية الألم بسبب استيلاء بعضهم على كتب له ، وكان أبوه شفى قد قرأها على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن هذه الكتب كتاب تضمن أقضية الرسول ، وآخر بعنوان قال الرسول .

٢ ــ حنش بن عبد الله السبأى المتوفى سنة ١٠٠ هـ .

٣ ــ تبيع بن عامر الحميرى المتوفى سنة ١٠١ هـ .

٤ ــ الشعبى ولد سنة ١٩ هـ ومات سنة ١٠٤ هـ .

٥ ــ عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٥ هـ كان صحابيا وحضر مع أبيه فتح مصر وكان من أعظم أهل العلم فى عصره وكانت أسرته تحتفظ بنحو من مائة حديث .

٦ ــ عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر ٩٠ ــ ٩٣ هـ .

٧ ــ عبد الرحمن بن حجيرة المتوفى سنة ٨٣ هـ .

٨ ــ عقبة بن عامر الجهنى المتوفى سنة ٥٨ هـ .

٩ ــ عطاء بن دينار الهذلى المتوفى سنة ١٢٦ هـ .

١٠ ــ عمار بن سعد التجيبى المتوفى سنة ١٠٥ هـ .

١١ ــ مجاهد بن جبر المكى المتوفى سنة ١٠١ هـ .

* * *

القسم الثاني
كتاب الولاة وكتاب القضاة

أفرد الكندى القسم الأول من الكتاب لأخبار الولاة الذين تولوا أمور البلاد منذ تمام الفتح حتى سنة ٣٣٥ هـ [١] ، وهى السنة التى كف فيها عن الكتابة لسبب غير معروف على وجه التحقيق . اذ ثبت أنه مات بعد ذلك بخمس عشرة سنة . وأغلب الظن أنه كف عن الكتابة لطارىء ألم به ، ولعله طارىء العلة والمرض ، بدليل أن الذين أتمـوا كتابه حتى سنة ٣٥٨ هـ [٢] كانوا يتحدثون باسمه ويروون عنه .

وأفرد القسم الثانى للرجال الذين تولوا القضاء فى مصر وساق أخبارهم مؤرخة تأريخا متتابعا حتى انتهى بأخباره حتى سنة ٢٤٦ هـ [٣] وهى السنة التى ولى فيها القضاء بكار بن قتيبة من قبل المتوكل . ثم كف عن الكتابة أيضا وأتم عمله وذيل عليه أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد ، وساق أخبار القضاة فى مصر حتى سنة ٤٢٣ هـ [٤] .

وأهمية هذا المؤلف بصفة خاصة حرصه على التسلسل فى الرواية وتتبع الخبر الى منابعه الأولى فى أمانة المحدث ونزاهة القاضى حتى لا نكاد نشعر باتجاهه الخاص الا فى مناسبات

---

(١) كتاب الولاة ص ٣٩٣
(٢) كتاب الولاة ص ٣٥٨
(٣) الولاة ص ٤٧٦
(٤) القضاة ص ٥٠٠

قليلة ، وليس هذا فى الأخبار السابقة على عصره بل فى الأخبار التى عاصرها . والمرء ليشعر بالصدق ينبع من كل كلمة قالها حتى ليندر أنه قال (فيما أظن) أو فيما أعلم ذلك أنه اذا وجد سنداً روى واذا لم يجد سنداً سكت ، وهو يدل على المرحلة المتفوقة التى بلغتها مدرسة التاريخ فى مصر فى ذلك العهد والثقة التى حازتها فى العالم الاسلامى كله .

وهو يحرص أشد الحرص على توقيت الحوادث توقيتا دقيقا باليوم والشهر والسنة ، ومن النادر أن تجد خبراً رواه الا ويؤرخه تاريخ العارف المتمكن الأمر الذى يدل على أنه كان ينقل من مظان لا يرقى اليها شكه . فهو أشبه بالتقويم المصرى الاسلامى المتتابع الذى يدير التاريخ فى دقة وأمانة منذ الفتح حتى السنة التى انتهى اليها .

ولم يتنكب هذا النهج فى كتابه القضاة ، اذ نجد فيه نفس الحرص على السند والرواية ونفس الحرص على ضبط التواريخ مع العلم الغزير والبصيرة النفاذة والسرد المسلسل الممتع .

لهذا آثرت أن أستخلص الأحداث السياسية التى وقعت فى مصر منذ الفتح حتى السنة التى انتهى اليها الكتاب مرتبة كما رتبها المؤرخ مع الحرص على اثبات التواريخ التى حرص على اثباتها مع اسقاط السند وحذف الشعر الذى حفل به الكتاب لأضع بين يدى القارىء نفس المادة التى أراد المؤرخ أن يبسطها مع شىء من الترتيب والتعليق .

وآثرت أيضا أن أؤرخ للقضاء فى مصر فى هذه الفترة التى تناولها المؤرخ مع الحرص على ابراز التطور واظهار التقاليد التى نمت على مختلف العصور حتى وصل القضاء الى المرتبة التى انتهى اليها الشيخ الكندى .

وعسى أن يؤدى ذلك كله الى القاء مزيد من الضوء على هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر العربية ، فترة تكوين الحضارة وارساء جذور المجتمع .

أولا ـ الأحداث السياسية مستخلصة من كتاب الولاة

(١)

الفتح العـــربى لمصر

يتحـــدث الكندى [١] عن اتصال العرب بمصر قبـــل الفتح واختلاف عمرو بن العاص الى الاسكندرية متاجراً واهتمامه بأمر البلاد وهو فى بلاد الشام ومعرفته بما سادها من اضطراب فى العصر البيزنطى الأخير وهو يقول على لسانه : « .. انى عالم بها وبطرقها وهى أقل شىء منعة وأكثر أموالا .. » ويؤكد الكندى أن اعداد العرب لفتح مصر لم يكن مفاجئا ولا عفويا انما بعد تدبر واستعداد سابق . ويعرض لاتصالات عمرو بالخليفة بشأن فتح هذه البلاد ولخطاب عمر بن الخطاب الى عمرو وهو عند العريش وللقصة الشائعة من حبس عمرو للكتاب لا يتلوه حتى نزل العريش فقال عمرو « الحمد لله أية أرضه هذه : قالوا مصر » فقرأ كتاب الخليفة .

ويشير الى فتح الفرما والتقدم الى بلبيس والى قتال الروم بها وسير العرب الى أم دنين والى حصار حصن بابليون والأمداد التى تلقاها المسلمون وأن عمرو حاصر الحصن سبعة أشهر ، وأنه تم الاستيلاء على الحصن فى يوم الجمعة مستهل المحرم

---

(١) كتاب الولاة ص ٧ ـ ٩

سنة ٢٠ هـ ،وأن عدة جيش المسلمين عند الحصار كانت خمسة عشر ألفا وخمسماية وأن من تقاسم الفيىء منهم ١٢,٣٠٠ ومعنى هذا أن خسائر المسلمين فى هذه المعركة الكبيرة بلغت نحواً من ٢٧٠٠ من الشهداء « كان الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين ١٢ ألفا وثلاثمائة بعـــد من أصيب منهم فى الحصـــار بالقتل » .

ثم تحرك الجيش زاحفا الى الاسكندرية فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ،وأشار الى حصار الاسكندرية ثلاثة أشهر والى دخول الاسكندرية مستهل سنة ٢١ هـ . والى غزوات عمرو بن العاص نحو الغرب مستهلا الاتجاه العربى نحو فتوح المغرب ،وأنه فتح برقة صلحا سنة ٢١ هـ ومضى منها الى طرابلس ،وفتحها عنوة سنة ٢٢ أو سنة ٢٣ حسب رواية الكندى .

* * *

(٢)

عصر الراشـــــدين ١

دخلت مصر بعد تمام الفتح دائرة النفوذ العربى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ،وكانت لعصر الراشدين صبغته الخاصة التى أملت عليه أسلوبه الخاص فى حكم البلاد الاسلامية عامة ومصر خاصة . فقد كان هذا العصر استمراراً للعصر النبوى

(١) الكندى : الولاة ص ١٠ ــ ٣١

وكان عصر التطبيق العالمى للدعوة الى الاسـلام والتطبيق العملى لمبادىء الاسـلام فى بيئات غير عربية . وقد وضعت أصول السياسة الادارية فى عصر الخليفة عمر وكانت سياسته الادارية هدفها الرقابة الشديدة على الولاة ، فلم يكونوا حكاما مدنيين فحسب أو قواداً فحسب انما دعاة الى الاسلام . فكان الوالى يختار من أكثر الصحابة فضلا وأعمقهم ايمانا . وكانوا يعزلون مخافة أن يؤدى طول مقـامهم الى نوع من الاعتداد بالنفس ، ويراقبون مراقبة دقيقة وتحصى أموالهم قبل الولاية وبعدها ، ويقاسمون الأموال اذا ظهرت عليهم أعراض الثراء . وقد نظمت أمور الحكم فى مصر فاستقرت قواعد الولاية ونظمت الشرطة وأحكام الجـزية والخراج واسـتقرت قواعد القضاء ووضحت العلاقات بين مصر وبين الخلافة . وفى هذا العهد نقض البيزنطيون هدنة الاسكندرية وعادوا الى الهجوم على البلاد واتجه العرب الى غزو النوبة ووضعوا لعلاقات مصر بالنوبة الأصول والقواعد وظهرت البحرية الاسلامية فى مصر ودخلت معركة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ . ثم لاحت نذر فتنة عثمان . والكندى يسوق أصح الروايات وأصدقها ويتحدث عن انفعال المصريين بأحداث الفتنة ومشاركتهم فيها وموقف العرب منها ويشير الى الوقائع التى حـدثت والدماء التى أريقت الى أن انتهى الأمر بمقتل عثمان وامتداد سلطان على الى مصر والنزاع بين على ومعاوية والى استيلاء معاوية على مصر وتولى عمرو أمورها للمرة الثانية .

واليكم رواية الكندى :

ثم توفى أمير المؤمنين عمـر فى ذى الحجة سنة ٢٣ وتمت البيعة لعثمان وتوليته عبد الله . ويشير الكندى الى نقض الروم لشروط الهدنة وعودتهم لغزو الاسكندرية بقيادة عمانويل والى رد عمرو بن العاص لمصر لمعرفته بحربهم وطول ممارسته للحرب وقد حارب الروم بالاسكندرية ثم فتحها عنوة سنة ٢٥ هـ ، والى عودة العرب لغزو افريقية فى عهد عبد الله بن سعد سنة ٢٧ ، والى قتل الوالى جرجير ، وقد بلغ سهم الفارس فى هذه الغزوة ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار ، ثم كانت فتوح النوبة وغزو دنقلة « وغزوة الأساود » فى سنة ٣١ وعقدت الهدنة مع أهل النوبة ولم يكن العهد مكتوبا « ليس بين أهل مصر والأساود عهد انما كانت هدنة أمان بعضنا من بعض : نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطوننا رقيقا ولا بأس بما يشترى من رقيقهم منهم ومن غيرهم » [1] .

ثم أحرز المسلمون التفوق البحرى فى غزوة ذى الصوارى سنة ٣٤ وكان أسطول العدو يقوده قسطنطين فى ألف مركب ، ويقال فى سبعماية والمسلمون فى مائتى مركب ، وهزم الروم وسميت الغزوة ذات الصوارى لكثرة صوارى المراكب .

ويشير الكندى الى بداية فتنة عثمان والى تكلم الناس

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٢

بالطعن على عثمان ورحيل عبد الله بن سعد الى عثمان فى وجوه الجند سنة ٣٥ . ثم يتناول الفتنة العثمانية والأثر الذى تركته فى مصر فى ذلك الوقت والى خروج محمد بن أبى حذيفة فى شوال سنة ٣٥ ، وطرده عقبة بن عامر من الفسطاط ودعوته الى خلع عثمان والتحريض عليه والى أن ابن أبا حذيفة كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى ثم يأخذ الرواحل فيضمرها (يجعلها ضامرة) ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث لذلك معهم فيجعلهم على ظهــور البيوت فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافر ثم يأمرهم بالخــروج الى طريق المدينة بمصر . ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم . وقد أمرهم اذا لقيهم الناس أن يقولوا ليس عنــدنا غير الخبر فى الكتب ، ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة وكأنه يتلقى رسل أزواج النبى فاذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا عليكم بالمسجد فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى فيجتمع الناس فى المسجد ، ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول : انا لنشكو الى الله واليكم ما عمل فى الاسلام وما صنع فى الاسلام فيقوم أولئك الشـيوخ من نواحى المسجد بالبكاء .

ويشير الى جذور العثمانية فى مصر بزعامة معاوية بن حديج وخارجة بن حــذافة وبسر بن أبى أرطاة ومسلمــة بن مخلد الأنصارى وعمرو بن قحزم الخولانى ومقسم بن بجيرة وسعد ابن مالك الأزدى وخالد بن ثابت الفهدى ولم يكن عددهم

(١) الكندى : الولاة ص ١٤

كبيراً . ويشير الى محاولة اتصالهم بعثمان وما كان من بعث عثمان سعد بن أبى وقاص ليصلح بين الفريقين فأساء الثوار معاملته « فقلبوا عليه فسطاطه وشجوه وسبوه فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء »[1] . وعاد عبد الله بن سعد حتى اذا بلغ جسر القلزم وجد فيه خيلا لابن أبى حذيفة فمنعوه من الدخول فانصرف الى عسقلان وكره أن يرجع الى عثمان فقتل عثمان وهو بعسقلان ثم مات بها .

وعرض الكندى للجيش الذى بعثه ابن أبى حذيفة الى عثمان واختار من أهل مصر ستماية رجل على كل مائة منهم رئيس وحبس أنصار عثمان فى دورهم ثم قتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وعاد الوفد الذى أراد أن يرسله الى الحجاز ودخلوا الفسطاط فلما دخلوا المسجد صاحوا انا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله .

وأشار الكندى الى الفتنة التى حدثت فى مصر بعد مقتل عثمان اذ قام شيعته وعقدوا لمعاوية بن حديج عليهم وبايعوه على المطالبة بدم عثمان .

وساروا الى الصعيد وبعث اليهم ابن أبى حذيفة خيلا فالتقوا بدقناش من كورة البهنسى وهزم أصحاب ابن أبى حذيفة . ومضى معاوية بن حديج حتى بلغ برقة ثم عاد الى الاسكندرية . وأعد ابن أبى حذيفة جيشا آخر بقيادة قيس بن حرمل اللخمى فنشب القتال فى خربتا أول يوم من شهر رمضان سنة ٣٦ هـ .

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٦ .

وذكر أن معاوية بن أبى سفيان سار الى مصر ونزل سلمنت بكورة عين شمس فى شوال سنة ٣٦ ، فخرج ابن أبى حذيفة ليمنعه من الدخول فبعث اليه معاوية « انا لا نريد قتالا ، انما جئنا نطلب تسليم قتلة عثمان : عبد الرحمن بن عديس وكنانة ابن بشر ، فامتنع الثوار فقال معاوية لابن أبى حذيفة « اجعل بيننا وبينكم رهنا فلا يكون بيننا وبينكم حرب » فرضى الثوار بذلك واستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم بن الصلت ابن مخرمة وخرج فى الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما بلغوا اللد سجنهم معاوية بها وسار الى دمشق فهربوا من الحبس وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم وذلك فى ذى الحجة سنة ٣٦[1] .

ثم تحدث عن حكومة على بن أبى طالب فى مصر وكيف ولى قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٧ واستمال العلويون أنصار عثمان بخربتا وبعث اليهم قيس اعطياتهم واستقبل وفودهم .

واستطاع قيس هذا أن يرد كيد معاوية وعمرو عن مصر ولكن معاوية تغلب عليه بالدهاء والمكايدة وذكر الكندى حديث معاوية عن مكايدته قيسا والقضاء عليه ، فقال ان معاوية قال لأهل الشام لا تسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه فان قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم بخربتا يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقال معاوية وطفقت أكتب بذلك الى

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٩

شيعتى من أهل العراق . فسمع بذلك جواسيس على بالعراق فاتهم على قيسا وبعث اليه يأمره بقتال أهل خربتا وبها عشرة آلاف فارس من أنصار عثمان فأبى قيس قتالهم وكتب الى على ان كنت تتهمنى فأعزلنى وابعث غيرى فعزله لخمس خلون من رجب سنة ٣٧ وولى الأشتر مالك بن الحارث ولكنه مات مسموما فى مدينة القلزم ، واستمرت سيادة على بن أبى طالب فى مصر وولى عليها محمد بن أبى بكر الصديق فى رمضان سنة ٣٧ . وقد كتب الى انصار عثمان يدعوهم الى بيعته فلم يجيبوه وهموا بمحاربته لولا ان صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية وأن ينصب لهم جسرا بنقيوس يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط ففعلوا ولحقوا بمعاوية .

ويشير الكندى الى أمر التحكيم بين على ومعاوية ويبدى ملاحظة مزيفة وهى أنه لما أجمع على ومعاوية على الحكمين أغفل على أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر فلما انصرف على الى العراق بعث معاوية عمرو بن العاص سنة ٣٨ الى مصر ومعه أهل دمشق وأهل فلسطين والمصريين أنصار عثمان وعلى رأسهم معاوية بن حديج وأهل الأردن فالتقوا بقوات محمد ابن أبى بكر بالمسناة [1] فى صفر سنة ٣٨ وقتل محمد بن أبى بكر وبعث معاوية بن حديج بسليم مولاه الى المدينة يشيرا بقتل محمد بن أبى بكر .

***

---

(1) الكندى : الولاة ص ١٦

(٣)

الحكم الأمــــوى فى مصر [١]

ثم حدثت التطورات التى أشرنا اليها بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان وما أدت اليه من وضع نهاية لعصر الراشدين بطبيعته ومثله وتقاليده وقضى العرب نحو خمس سنوات فى فتن وحروب داخلية متصلة بين على ومعاوية وانتهى الأمر بانتصار معاوية وتوليه الخلافة بعد مقتل على وتنازل الحسن .

هــذه التطورات جعلت للعصر الأموى طابعا خاصا ميزه عن العصر السابق . فالخلافة لم تنتقل الى الأمويين انتقالا طبيعيا اعتمادا على الأجهزة الاسلامية فى الحكم انما قامت على القوة والاغتصاب ، ومعاوية لم يكن أصلح الصحابة أو أكثرهم تقوى انما استند فى الحكم على وفرة الجند والمال وانتهى الأمر باهدار أهم ركن من أركان الخلافة حين أخذ البيعة لابنه يزيد .

لهذا كان لزاما أن تتغير الخطوط الرئيسية للسياسة العربية التى أشرنا اليها فى عصر الراشدين لتستجيب للظروف الجديدة . فالسياسة الادارية مثلا تغيرت تغييرا مطلقا ، فلم تعد مركزية كما رأينا ، فالخليفة فى دمشق لم يعد يقدر على السيطرة على دولة امتدت أطرافها الى الأندلس غربا والى الهند شرقا ولا يستطيع بمفرده أن يواجه هذه الفتن والثورات ، لذلك أعطى الأمويون

---

(١) الكندى : الولاة ٣١ ــ ٩٧ .

الولاة سلطة مطلقة وكان لهؤلاء الولاة سلطان الخليفة نفسه يضاعفون الضرائب ويقضون على الثورات ويجندون الجند ، ومن أجل أن تتاح لهم الفرصة لتنفيذ هذه السياسة . لم تكن الدولة تعزل الولاة بسرعة ، انما كانت تطيل مدة حكمهم وبعضهم بقى يحكم مصر نحو ثلاث عشرة سـنة أو عشرين سنة لكى تستقر أمورهم وينصرفون لتحقيق أهداف الأمويين . ولم يكن هؤلاء الولاة يختارون من أصـلح الناس انما كان أكثرهم من موالى الأمويين أى من شيعتهم أو أمرائهم ، وكانت الدولة مع هذا تراقبهم مراقبة دقيقة عن طريق البريد الذى تحول فى العصر الأموى الى أداة لمراقبة الولاة فاذا ثبت خروجهم عن سياسة الدولة عزلوا واذا ثبت الاخلاص أطلقت أيديهم .

هذه السياسة الادارية نجحت نجاحا عظيما وأتاحت للدولة أن تبقى فى الحكم نحوا من ٩٢ سنة مع ضعف بعض الخلفاء وكثرة الثورات والأزمات ويرى المؤرخون أن الولاة الأمويين فى مصر كانوا من أكثر الاداريين نجاحا .

ونلمح فى كتابات الكندى خفايا الحياة الأموية واتجاهات عصرهم ومشاكلهم . فهو يشير مثلا الى بداية الاهتمام بفتوح المغرب فى ولاية عمرو الثانية والى تنظيم رباط الاسكندرية ليواجه التوسع البحرى للأمويين والغارات المتكررة للبحرية البيزنطية ، والى نشاط الأمويين البحرى واشراك المصريين فى الحملات على رودس والقسطنطينية . ثم يشير الى دعوة ابن الزبير ودعوة الخوارج فى مصر ومشاركة عرب مصر فى هذه الأحداث

والى مجيء مروان بن الحكم الى مصر ودخوله الفسطاط وتولية عبد العـزيز بن مروان ، والى حكومة عبد العـزيز فى مصر وانشاء مدينة حلوان واصلاحات المسجد الجامع ، ثم الى بيعة عبد الملك بن مروان والى بداية الحملات الكبرى على المغرب فى عهد حسان بن النعمان وموسى بن نصير والى تعريب الدواوين فى عهد عبد الله بن عبد الملك وانتزاع موازيت القبط عن الكور واستعمال المسلمين عليها والى تجمع قبائل قضاعة فى ديوان مستقل ، والى ثورات المصريين منذ عام ١٠٥ هـ كرد فعل لسياسة الأمويين الاقتصادية ومضاعفتهم للخراج ، ثم الى نقل قبائل قيس الى مصر وتوطينهم بالحوف الشرقى والى نشاط العلويين فى مصر منذ عام ١٢٢ هـ تمشيا مع نشاط الهاشميين فى العالم الاسلامى كله . ثم يشير الى انهيار الحكم الأموى بعـد وفاة هشام بن عبد الملك وما صحب ذلك من كثرة تغـير الولاة وثورات القبط وثورات العرب المستمرة واستعانة الدولة بعرب الشام لاخماد هذه الثورات .. كما يشير الى بداية انتشـار الاسلام فى الريف واقامة المنابر فى عواصـم الكور ثم الى انحلال الدولة فى عهد مروان بن محمد ونجاح الثورة السياسية وقدوم مروان الى مصر وهزيمته ومصرعه بها وانتقال مصر الى النفوذ العباسى .

***

واليكم رواية الكندى :

ثم كانت ولاية عمرو بن العاص الثانية بداية للحكم الأموى فى مصر وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨ هـ . وأشار الكندى الى مؤامرة بنى ملجم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل على ومعاوية وعمرو وتواعدوا لليلة من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ وكان يزيد هو صاحب عمرو وعرضت لعمرو تلك الليلة علة منعته من حضور المسجد فصلى خارجة بالناس فقتله يزيد [١] .

وعاود عمرو اهتمامه بفتوح المغرب فبعث شريك بن سمى الغطيفى على غزو لواته من البربر فغزاهم سنة ٤٠ ثم صالحهم ولكنهم خرجوا بعد ذلك فبعث اليهم عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى سنة ٤١ ، كما عقد لعقبة بن نافع على غزو هوارة ، ولشريك بن سمى على غزو لبدة فغزوهما سنة ٤٣ هـ .

وقد توفى عمرو بن العاص ليلة الفطر سنة ٤٣ وخلفه عتبة ابن أبى سفيان فى ذى القعدة سنة ٤٣ ، وظهرت المرابطة بالاسكندرية حين عقد عتبة لعلقمة بن يزيد الغطيفى على الاسكندرية فى اثنى عشر ألف من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، وخرج عتبة الى الاسكندرية مرابطا فى ذى الحجة سنة ٤٤ ، وبنى بها دار الامارة فى الحصن القديم ، وتوفى بها ودفن بمنية الزجاج [٢] ، وخلفه عقبة بن عامر بن عبس الجهنى

---

(١) الكندى : الولاة ص ٣٢

(٢) الكندى : الولاة : ص ٣٦

صاحب بغلة رسول الله الشهباء التى يقودها فى الأسفار ، وكان عقبة قارئا فقيها شاعرا ، له الهجرة والصحبة والسابقة ، وقد تولى عقبة امرة البحر ، وأمره معاوية أن يسير الى رودس وولى مسلمة بن مخلد الأنصارى فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧ هـ .

ويشير الكندى الى بداية اهتمام معاوية بأمر المغرب وأنه عقد لمسلمة بن مخلد على مصر والمغرب ، واشتهرت غزواته فى البر والبحر ، وفى امرته نزلت الروم البرلس سنة ٥٣ واستشهد فى الحرب وردان مولى عمرو بن العاص وجمع كثير من الناس . وولى معاوية عابس بن سعيد البحر فغزا اسطادنة وفى ولايته توفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ ، وخلفه يزيد فأقر مسلمة بن مخلد على مصر ، ولما توفى مسلمة بن مخلد فى رجب سنة ٦٢ بعد ولاية استمرت خمس عشرة سنة وأربعة أشهر تولى سعيد بن يزيد مستهل شهر رمضان سنة ٦٢ ، ولم يرتح أهل مصر الى سعيد بن يزيد ، ولم يزل الأمر كذلك حتى توفى يزيد بن معاوية سنة ٦٤ ودعا ابن الزبير الى نفسه .

ويتحدث الكندى عن حركة ابن الزبير فى مصر ومشاركة المصريين فيها فيشير الى تأييد الخوارج لدعوة ابن الزبير [1] وكانوا يحسبونه على مذهبهم ، ورحل اليه وفد منهم وسألوه أن يبعث اليهم أميرا يقومون معه ويؤازرونه ، وأيد دعوة ابن الزبير ناس من أهل مصر وأرسل ابن الزبير عبد الرحمن ابن جحدم الفهرى وانتزع الولاية من سعيد بن يزيد ، فكان

(١) الكندى : الولاة ص ٤٠

عبد الرحمن بن جحدم أول وال من قبل عبد الله بن الزبير ، ودخل مصر فى شعبان سنة ٦٤ . ثم أشار الكندى الى بيعة مروان بن الحكم ببلاد الشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، وسار مروان الى مصر ومعه خالد بن يزيد بن معاوية ، وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش الى أيلة ليدخل مصر من هذه الناحية ، وأجمع ابن جحدم على حربه وحفر خندقا حول الفسطاط وأظهر الهمة للدفاع عن مصر فأرسل المراكب فى البحر الى الشام ، وأرسل جيشا عليه السائب بن هشام بن كنانة العامرى وآخر عليه زهير بن قيس البلوى ليمنع عبد العزيز بن مروان . وانهزمت جيوش ابن جحدم وضرب الحصار على الفسطاط ، ودارت وقائع تسمى أيام الخندق والتراويح لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا يخرج هؤلاء ثم يرجعون ثم يخرج غيرهم [١] . وقتل كثير من أهل القبائل من أهل مصر وقتل من أهل الشام الى أن مشى قوم فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان على أن لا يكشف ابن جحدم على أمر جرى على يديه ويدفع اليه مالا وكسوة . فأجاب مروان الى ذلك وكتب لهم بيده كتابا يؤمنهم على جميع ما أحدثوه ، ودخل مروان الفسطاط لغرة جمادى الآخرة سنة ٦٥ ، وبايعه الناس الا نفر من المعافر تمسكوا بدعوة ابن الزبير وقتل منهم ثمانين رجلا . وأقام مروان بمصر شهرين ثم جعل ولايتها الى ابنه عبد العزيز وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٦٥ ، وخرجت مصر عن دعوة ابن الزبير

---

(١) الكندى ص ٤٤

واستقام أميرها ووليها عبد العزيز بن مروان فى رجب سنة ٦٥هـ ثم توفى مروان لهلال رمضان سنة ٦٥ هـ وبويع عبد الملك بن مروان وأقر عبد العزيز على مصر . وبنى عبد العزيز الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ غرب المسجد الجامع ، ووقع الوباء بمصر فى سنة ٧٠ ، فخرج عبد العزيز فنزل حلوان فأعجبته فاتخذها مسكنا وجعل بها الحرس والأعوان والشرط وبنى الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وأحكمها وغرس كرمها ونخلها : ولما غرس عبد العزيز نخل حلوان وأطعم دخله والجند معه جعل يطوف فيه ووقف على غروسه ومساقيه ، وقد اشترك عبد العزيز فى مصر فى تصفية الفتنة الزبيرية ، وفى سنة ٧٢ هـ أرسل حملة بحرية الى مكة لقتال ابن الزبير وأميرها مالك بن شراحيل الخولانى وهم ثلاثة آلاف رجل ، وقتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وأمر عبد العزيز بالزيادة فى المسجد الجامع بمصر فهدم كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك فى سنة ٧٧ هـ [١] .

وأشار الكندى الى حملات عبد الملك بن مروان على المغرب والى صيرورة مصر قاعدة لهذا الزحف الكبير فذكر أن حسان ابن النعمان الغسانى قدم مصر بعهده الى المغرب سنة ٧٨ هـ فسأله عبد العزيز أن لا يعرض لطرابلس فأبى حسان ذلك فعزله عبد العزيز وولى موسى بن نصير مولى لخم أمر المغرب كله فسار موسى ففتح الله عليه الفتوح .

---

(١) الكندى ص ٥١

وأشار الى مشكلة ولاية العهد فى عهد الخليفة عبد الملك الذى كتب الى أخيه يسأله أن يرفع له عن ولاية العهد ليعهد الى الوليد وسليمان فأبى عبد العزيز ثم توفى عبد العزيز ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ ودفن بالفسطاط .

وكانت ولاية عبد العزيز عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما .

وآلت الولاية الى عبد الله بن عبد الملك يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ ، ولما توفى الخليفة عبد الملك يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٨٦ هـ بويع للوليد ، ثم أخذت له بيعة أهل مصر وأقر أخاه على ولاية العهد ، وفى عهد عبد الله صدر الأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص [1] .

وتولى قرة بن شريك العبسى من قبل الوليد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٩٠ هـ ، وفى عهده حدثت ثورة الشراة بالاسكندرية وكانت عدتهم نحو مائة وقد أطفأ ثورتهم ، وورد أمر الوليد بالزيادة فى المسجد الجامع سنة ٩٢ وبدأ فى بناية المسجد فى شعبان سنة ٩٢ هـ وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة من بنى عامر . وكانوا يجمعون الجمعة فى

(١) الكندى ص ٥٩

قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه . ونصب المنبر الجديد فى الجامع سنة ٩٤ هـ فيقال انه لايعلم اليوم فى جند من الأجناد أقدم منه بعد منبر رسـول الله ، ومات قرة لست بقين من شـهر ربيع الأول سنة ٩٦ هـ .

وخلفه عبد الملك بن رفاعة فى وقت توفى فيه الوليد يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ وخلفه سليمان بن عبـد الملك فأقر عبد الملك بن رفاعة على صلاتها وخراجها .

ويشير الكندى الى وفاة سليمان بن عبد الملك فى صفر سنة ٩٩ هـ وبيعة عمر بن عبد العزيز وعزل عبد الملك بن رفاعة ، وبانت شارات حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز فقال : دلونى على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح أوليه صلاتها ، فقيل له : معاوية بن عبد الرحمن بن حديج وأيوب بن شرحبيل ، قال : أى الرجلين أقصد ؟ قالوا : أيوب .

وكانت ولاية أيوب بن شرحبيل على الصلاة فقط فى ربيع الأول سـنة ٩٩ هـ . وتحدث الكندى عن ملامح السياسـة العمرية فى مصر حين ورد كتاب أمير المؤمنين بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وقال لأيوب : « الصق ذلك بأهل البيوتات الصالحة فان الناس معادن واقسم للغـارمين بخمسـة وعشرين ألف دينار » [١] . واشترك المصريون فى الحملة على القسطنطينية وكان على أهل مصر أبو عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، وامتدت

---

(١) الكندى ص ٦٩

يد التعريب حتى الى القرى الصغرى ونزعت موازيت القبط (عمد البلاد) عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

وقبض عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ وخلفه يزيد بن عبد الملك فأقره أيوب الى أن توفى لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ١٠١ هـ ، وخلفه بشر بن صفوان الكلبى لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ١٠١ هـ ، وفى عهده نزلت الروم بتنيس .

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاعة فى القبائل كتب الى يزيد بن عبد الملك يسأله الاذن له فى استخراج من كان فى القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة فأذن له يزيد فأخرج مهرة من كندة وأخرج تنوخا من الأزد وأخرج آل كعب من قريش وأخرج جهينة من أهل الراية وأخرج خسينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة .

وتدوين بشر بن صفوان هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثانى تدوين عبد العزيز بن مروان ، والثالث تدوين قرة بن شريك ، والرابع هو هذا . ولم يكن يعد هذا فى الديوان شيئا له ذكر الا ما كان من الحاق قيس فيه زمن هشام وأشياء أحدثها المسودة (العباسيون) من أرباعهم التى أحدثوها[1] .

وأشار الكندى الى امتداد سلطان مصر الى افريقية فقد ورد كتاب يزيد بن عبد الملك على بشر بن صفوان بتأميره على

---

(١) الكندى ص ٧١

افريقية فخرج اليها فى شـوال سنة ١٠٢ هـ واستخلف أخاه حنظلة على مصر .

ثم وليها حنظلة بن صفوان من قبل أخيه بشر وأقره يزيد ابن عبد الملك ، وتوفى يزيد بن عبد الملك فى شعبان سنة ١٠٥ هـ وبويع هشام بن عبد الملك فاستقبل بخلافته شهر رمضان .

ثم تولى محمد بن عبد الملك بن مروان من قبل هشام على صلاتها فقط يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ١٠٥ هـ ، ثم وليها الحر بن يوسف من قبل هشام على صلاتها فقط فى ٣ ذى الحجة سنة ١٠٥ هـ .

ويشير الكندى الى ثورات المصريين بسبب زيادة الخراج فى عصر هشام بن عبـد الملك ، ذلك أن عبد الله بن الحبحاب صاحب خراجها كتب الى هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينـار قيراطا فانتقضت كورة تنو وتمى وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقى .

وبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير وذلك أول انتقـاض القبط بمصر ، وكان انتقاضهم فى سنة ١٠٧ هـ .

ثم تولى حفص بن الوليد من قبل هشام على صلاتها فقط فلم يمكث طويلا ، ووليها عبد الملك بن رفاعة من قبل هشام على صلاتها يوم الجمعة ١٢ ليلة بقيت من المحرم سنة ١٠٩ هـ ، ووليها الوليد بن رفاعة على صلاتها سنة ١٠٩ ، وفى عهد الوليد نقلت

قيس الى مصر سنة ١٠٩ هـ [1] ، ولم يكن منهم أحد قبل ذلك الا من كان من فهم وعدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل اليها منهم أبياتا فأذن له هشـــام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط ، ففرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم ، فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه .

قدوم قيس الى مصر فى عهد هشام بن عبد الملك :

ان عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام مصر قال : ما أرى لقيس فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان ، فكتب الى هشام : ان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وانى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا الا أبياتا من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجها وهى بلبيس ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب اليه هشام أنت وذلك ، فبعث الى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى مضر ومائة أهل بيت من بنى عامر ، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى سليم فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل ، ثم أمرهم

---

(١) الكندى ص ٧٦

باشتراء الخيول فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤنة فى أعلاف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل اليهم خمسماية أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسماية أهل بيت ، ومات هشام وببلبيس ١٥٠٠ أهل بيت من قيس حتى اذا كان زمن مروان بن محمد وولى الحوثرة ابن سهيل الباهلى مصر مالت اليه قيس ، ومات مروان وبها ٣٠٠٠ أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم . وأحصيناهم فى ولاية محمد بن سعيد على مصر صغيرهم وكبيرهم وكل من جمعت الدار منهم خمسة آلاف الا مائتين .

وفى عهد الوليد بن رفاعة خرج وهب اليحصبى شاريا بالفسطاط سنة ١٠٧ هـ بسبب ما كان من اذن الوليد للنصارى فى بناء كنيسة بالحمراء فقتله الوليد ، وكانت امرأته تطوف بالليل على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدم وهب ، فثار القراء وعليهم شريح بن صفوان التجيبى وقاتلوا الوليد بن رفاعة بجزيرة الفسطاط .

ثم تولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر من قبل هشام ، وقد أشار الكندى الى النشاط البحرى الذى تم فى هذه الفترة وكان نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع أميرا للبحرية فى مصر سنة ١١٨ هـ فنزلوا على تروجة فحاصروها ثم انصرفوا وهاجمت السفن البيزنطية فأسروا نعيم بن العجلان وغيره [1] .

---

(١) الكندى ص ٧٩

ثم وليها حنظلة بن صفوان ولايته الثانية على صلاتها فقدم يوم الخميس لخمس ليال خلون من المحرم سنة ١١٩ هـ . ويبدو أن ثورات القبط قد تجددت مرة أخرى فقد ثاروا بالصعيد وحاربوا عمالهم سنة ١٢١ هـ وبعث أهل الديوان فقتلوا أناسا كثيرين .

ويبدو أن نشاط العلويين قد ظهر بمصر فى ذلك الوقت فقد قدم مصر سنة ١٢٢ هـ أبو الحكم بن أبى الأبيض العبسى خطيبا برأس زيد بن على يوم الأحد ١١ جمادى الآخرة واجتمع الناس اليه فى المسجد الجامع ، وظلت لمصر السيادة على افريقية فى ذلك الوقت أيضا ، ذلك أن هشام بن عبد الملك ولى حنظلة ابن صفوان على افريقية يوم الاثنين لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٤ هـ ، وتولى حفص بن الوليد الحضرمى للمرة الثانية ليلة الجمعة ١٣ من شعبان سنة ١٢٤ هـ .

ثم لاحت نذر انهيار الحكم الأموى بعد وفاة هشام ابن عبد الملك وكانت وفاة هشام بن عبد الملك لعشر خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ابن عبد الملك فأقر حفصا على الصلاة والخراج ، وتوفى الوليد ابن يزيد لسلخ جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، ثم بويع يزيد ابن الوليد ، ثم توفى يزيد بن الوليد لهلال ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ ، وبويع ابراهيم بن الوليد فولى فى ذى الحجة سنة ١٢٧ هـ ، وخلفه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فبويع واستقبل بخلافته صفر سنة ١٢٧ هـ .

وولى حسان بن عتاهية من قبل مروان بن محمد وقدم يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ ، ولما أسقط حسان فروض حفص ثار عليه القواد وطالبوا بعودة حفص وخطبوا فى مسجد مصر ودعوا الناس الى خلع مروان فلم يخالفهم أحد ، وقدم عليهم أيضا رسول زامل بن عمرو من حمص وقد خلع مروان بها ، وحاصر الثوار دار حسان بن عتاهية ثم خلع من الولاية . ثم وليها جعفر بن الوليد للمرة الثانية تحت ضغط قواد الجند فأقام فيها شهرين ، وعاد حنظلة بن صفوان من افريقية ، وأراد مروان أن يعيده الى مصر فامتنع المصريون وأظهروا الخلع وهاجموا حنظلة وأخرجوه الى الحوف الشرقى ومنعوه من المقام فى الفسطاط ، وسكت مروان عن أهل مصر بقية سنة ١٢٧ هـ ثم عزل حفص مستهل سنة ١٢٨ هـ .

ثم كانت ولاية الحوثرة بن سهيل الباهلى ومعه قوات من عرب الشام برغبة القضاء على الثورات فى مصر فسار معه عمرو ابن الوضاح فى الوضاحية وهم سبعة آلاف ، وعلى أهل حمص نمير بن يزيد الكندى وعلى أهل الجزيرة موسى بن عبد الله الثعلبى ، وعلى أهل قنسرين أبو جبل بن عمرو الكندى . وبعث أبا الجراح الجرشى ليمهد له الأمر فعزل حفص . وخشى أهل مصر من حوثرة فبعثوا اليه يزيد بن مسروق الحضرمى فتلقاه بالعريش وسأله أن يؤمنهم على ما أحدثوا فأجابه الحوثرة الى ما سأل وكتب لهم كتابا بعهد وأمان فأتاهم به يزيد فاطمأنوا الى ذلك ، ثم بعث اليهم حوثرة يستأذنهم فى المسير اليهم والدخول

الى مصر فأذن له ودخل الحوثرة فى ١٢ المحرم سنة ١٢٨ هـ . وجمع الحوثرة رؤساء الفتنة يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقين من المحرم سنة ١٢٨ وقتلهم . وفى عهد الحوثرة ظهرت دعوة الشيعة مرة أخرى فقدم الى مصر داعية عبد الله بن يحيى طالب الحق فدعاهم فبايع له ناس ورفض غيرهم فبلغ ذلك حسان ابن عتاهية فاستخرجهم وقتلهم حوثرة .

وقد استدعى الحوثرة فى جمادى الأولى سنة ١٣١ هـ وبعث به مروان مددا الى يزيد بن عمرو بن هبيرة بالعراق فحضر الحصار بواسط ثم قتل مع يزيد بن هبيرة . ثم كانت ولاية المغيرة بن عبد الله الفزارى يوم الأربعاء لست بقين من رجب سنة ١٣١ هـ وتوفى يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ١٣٢ ، ثم كانت ولاية عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ .

ويشير الكندى الى بداية انتشار الاسلام داخل البلاد فيذكر أن عبد الملك بن مروان الوالى أمر باتخاذ الناس المنابر فى الكور ولم تكن قبله وانما كانت ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة [1] . وظلت ثورات القبط مشتعلة فقد خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود فبعث اليه عبد الملك عبد الرحمن بن عتبة المعافرى فقتل يحنس فى كثير من أصحابه .

وقامت ثورة أخرى على مروان فقد خالف عمرو بن سهيل

(١) الكندى ص ٩٤

ابن عبد العزيز بن مروان وتابعه على ذلك الدماحس بن عبد العزيز فى جمع من قيس فنزلوا الحوف الشرقى وأظهروا الفساد ، فندب عبد الملك أهل الديوان اليهم فساروا فى سبعة آلاف الى بلبيس فلما التقوا دعوا الى الصلح .

ثم كان انحلال الدولة الأموية وسقوطها فقد حضر مروان الى مصر مهزوما ، وكان جند مصر قد اعتزموا أن يمنعوه من الدخول وكان دخوله مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ هـ ، وانتشرت الدعوة العباسية فى أهل الحوف الشرقى وكذلك فى الاسكندرية واعتنقها عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله بن مسروق الحبشانى بصعيد مصر ، وكذلك يحيى بن مسلم بن الأثبج مولى بنى زهرة بأسوان . وعزم مروان على تعدية النيل وأمر بدار آل مروان المذهبة فأحرقت ، ثم دخل مروان الجيزة وحرق الجسرين .

وبعث مروان الى الاسكندرية للقضاء على الخارجين عليه ، وقامت ثورة للقبط برشيد ، وبعث زبان بن عبد العزيز الى الصعيد .

وقد صالح بن على العباسى وأبو عون عبد الملك بن يزيد الى مصر يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة ، وسار مروان الى بوصير من كورة الأشمونيين وسار صالح بن على بجيوشه وقتل مروان ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وقتل أنصار بنى أمية [١] .

---

(١) الكندى ص ٩٦

ودخل صالح بن على الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ هـ .

(٤)

الدولة العباسية بمصر ١

كان ظهور العباسيين ثورة اسلامية كبيرة لها مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كان ظهورهم ثورة سياسية لأن انتشار الاسلام أدى الى ظهور طبقات جديدة من المسلمين من غير العرب لم يحصلوا على حقوقهم المشروعة فسخطوا على الأمويين وأيدوا الدعاة العباسيين ، وكانوا من وراء نجاح الانقلاب السياسى ، وكانت ثورة العباسيين كذلك ثورة اقتصادية لأن السياسة الاقتصادية الأموية أدت الى كساد الحياة الاقتصادية فى العصر الأموى الأخير ، والذى يدرس أخبار هذا العصر يحس بالكارثة الاقتصادية فى مصر أواخر العصر الأموى وخاصة فى اقليم الفيوم من فساد المحاصيل وتكدسها فى الأسواق وانقطاع سبل المواصلات واصابة المحصول الزراعى بالضعف نتيجة للهجرة من الريف الى المدينة . وكانت الأزمات الاقتصادية من وراء ثورات الناس ومحاولة تغيير الوضع القائم بمناصرة العباسيين .

كانت الثورة العباسية أيضا ثورة البرجوازية الاسلامية أى

---

(١) الكندى ص ٩٧ — ٢١٢

ثورة الطبقة الوسطى من غير العرب ذلك أنه فى أواخر العصر الأموى ظهر فى المدن الكبرى أفراد من الطبقة الوسطى من غير العرب قاموا بمغامرات اقتصادية وجمعوا ثروات طائلة وكانوا يريدون أن يكون لهم فى ميدان السياسة نفس النفوذ الذى حازوه فى ميدان الاقتصاد . وكانت الثورة العباسية تلقى أعظم التأييد فى المدن الاسلامية الكبرى حيث هذه الطبقة الوسطى ونفوذها الاقتصادى ، وقد فرضت هذه الطبقة سلطانها السياسى طوال العصر العباسى .

كان من الطبيعى أن يؤدى انتقال الحكم الى العباسيين الى ايجاد سياسة عربية جديدة تنبع من هذه الظروف وتساير هذه التطورات ، وقد واجه العصر العباسى فعلا ظروفا كثيرة قدر لها أن تؤثر فى توجيه السياسة الادارية : منها انتقال مركز القوة العباسية الى العراق وقد حدث هذا فى وقت حرج من تاريخ الاسلام وهو احياء المقاومة البيزنطية ، فقد بدأ البيزنطيون بعد سلسلة من الهزائم الكبرى ينظمون المقاومة لاسترداد بعض ما فقدوه ، أو على الأقل وقف التوسع العربى ، وقد بدأ البيزنطيون ينظمون مقاومة ناجحة فى آسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط وجزيرة صقلية ، يضاف الى ذلك ما كان من أمر المقاومة الأموية التى كانت تتركز فى مصر والشام والمغرب . ولم يكف الأمويون عن الثورات مطالبين بالخلافة . كانوا يتخذون من مصر وبلاد الشام مركزا للدعوة سرية ناجحة ، هذا ولا ننسى تطور الاقليمية فى العصر العباسى وما كان من وجود

وعى اقليمى بين طبقات المسلمين ، هذا الوعى الذى سينمو فى القرن الثالث الهجرى ليشكل الحركات الاستقلالية التى ستظهر فى جميع البلاد الاسلامية فى وقت واحد .

وقد وضع العباسيون سياسة ادارية ناجحة عالجت هـذه الظروف وحققت أهدافهم كاملة ، فقد عملوا على ايجاد وحدة ادارية كبيرة تشمل الشام ومصر وبلاد المغرب ، وتقرر أن يكون لها كيان ادارى خاص ، وكانوا يولون على هـذه البلاد نائبا للخليفة يختار من الأمراء العباسيين . وكان نائب الخليفة هذا يقسم وقته بين مصر والشام ، اذا كان ببلاد الشام أقام بدمشق واذا كان بمصر أقام بالعسكر ، وعندما يكون فى أيهما يستخلف على الأخرى ، ونائب الخليفة هذا كان نفـوذه يمتد الى بلاد المغرب . واستخدم العباسيون بعض الأساليب التى استخدمها الراشدون من كثرة عزل الأمراء ونواب الخليفة حتى لا يؤدى طول بقائهم الى استقلال بالقسم المغربى من الدولة .

ولكن حدث منذ عهد المأمون أن تطور هـذا النظام الى اقطاعية لها سلطانها ونفوذها الكبير وبدأ نواب الخليفة يقيمون فى بغداد بصفة مستمرة ومنحوا سلطات كبيرة ، فخطب لهم على المنابر وكتبت أسـماؤهم على النقـود وذكرت أسماؤهم فى الوثائق الرسمية .

وبدأت الدولة تختار الولاة من الفرس المسلمين أو من الأتراك وفى الأخبار التى ذكرها الكندى عن الحكومة العباسية فى مصر صورة صادقة للسياسة التى انتهجها العباسيون وللمشاكل التى

تعرضت لها دولتهم حتى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى فقد أشار الى توزيعهم الاقطاعات على الذين ناصروهم بعد أن قضوا على المقاومة الأموية فى مصر ، وظهر حرص العباسيين على توطيد سلطانهم بافريقية حتى قيام الأغالبة ، كما ظهر أمر آخر انفرد به العباسيون منذ أن آلت اليهم الخلافة ، وهو توليتهم رجالات الحزب وقادته مناصب هامة فى الحكومة المركزية وفى الأقاليم . فقد ولى المنصور موسى بن كعب حكم مصر فى ١٦ ربيع الثانى سنة ١٤١ هـ ، ويروى الكندى عن موسى هذا ما يلى : « كان أسد بن عبد الله البجلى واليا على خراسان فاتهم موسى بن كعب بالميل للعباسيين فألجم بلجام ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر الى بنى هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، وكان موسى يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان » [١] .

ثم وضح الانشقاق بين العباسيين والعلويين بعد بيعة أبى العباس وعمد العلويون الى الثورة خصوصا فى عهد أبى جعفر المنصور فقامت ثورة محمد النفس الذكية وأخوه ابراهيم وقد امتدت هذه الثورة الى مصر وأيدها كثيرون من العرب المقيمين فى البلاد ، وقد استمرت ثورات القبط وبدأت الدولة تولى الولاة من الفرس ربما للمرة الأولى فى عهد أبى جعفر المنصور فقد ولى مولاه واضحا البلاد سنة ١٦٢ هـ .

ولم يكف الأمويون عن المطالبة بالحق المغتصب ، وقامت بمصر

---

(١) الكندى ص ١٠٦ — ١٠٨

ثورة دحية بن مصعب فقد فشت دعوته بين الناس وهزم أكثر من جيش سيره العباسيون لحربه وناضـل العباسيين فى البر والبحر وناصره المسالمة (المسلمون من أهل البلاد) والبربر ، ووضحت متاعب العباسيين فى مصر منذ سنة ١٦٧ ، وكان أخصها ثورات العرب التى ظلت تقوم وتهدأ منتهزة أية بادرة ضعف لتشعل البلاد نارا . وقد قامت ثورات العرب عام ١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٨ هـ ، وفى سنة ٢١٦ هـ تحالف العرب مع القبط وثاروا عام ٢١٦ هـ ، وظلت هذه الثورات ظاهرة تميز الحكم العباسى فى مصر حتى أسقطهم المعتصم من الديوان .

وكانت الدولة العباسية كثيرا ما تستخدم عرب الشام فى قمع العرب المصريين وجرت عادتهم على اخراج العرب الثوار من مصر بعد قهرهم ، وعملوا على توطينهم فى أقاليم أخرى كما فعل الرشيد مع عرب الحوف . وابتداء من سنة ١٧٩ هـ جرت عادة الولاة الذين توليهم الدولة على أن يقيموا فى بغداد وأن يرسلوا عنهم نوابا الى مصر يصرفون أمورها بأنفسهم .

وانفعلت مصر انفعالا كبيرا بالصراع بين الأمين والمأمون وقد استخدم الأمين جيش الأبناء فى مصر فاستقدمهم وسجلهم فى الديوان وفرض لهم العطاء ، كما حاول الاستنجاد بربيعة وقيس ، أما المأمون فقد اعتمد على الخراسانية وبعض بطون من العرب المقيمين فى البلاد ، واحتدم النزاع بين أنصـار الأمين والمأمون حتى قتل الأمين فى المحرم سنة ١٨٩ هـ .

وتلوح من روايات الكنـدى مظـاهر تفكك الحكومة

العباسية فى مصر ابتداء من عهد المأمون واستمرار هذا التفكك حتى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . فقد بدأ الولاة يولون باجماع الجند ومعنى هذا تدخل الجند فى عزل الولاة وتوليتهم . وقد ظهر تدخل الجند بصورة سافرة فى عهد ولاية المطلب الثانيـــة سنة ١٩٩ هـ ولعب الجروى دورا كبـيرا فى أحداث مصر أواخر القرن الثالث الهجرى . واستولى المهاجرة الأندلسيون على الاسكندرية وسيطروا عليهـا ولعبوا دورا كبيرا فى أحداث هذه الفترة ، وظهر السرى بن الحكم وبايعه الجند بالولاية واحتدم الصراع بينه وبين الجروى ، فلم يجد المأمون بدا من أن يعترف بالأمر الواقع واعترف بكل من السرى والجروى ولاة على ما بيدهم من البلاد ، وقـدم المأمون الى مصر فى محاولة لاسترداد هيبة الحكومة واصـلاح الأحوال ، وظهر نفوذ الأتراك فى عهـد المعتصم وظهروا فى مصر جنـدا للدولة وأصبح منهم أشناس نائبا للخليفة فى المغرب وتولى منهم على مصر كثيرون . وأخرج العلويون من مصر سنة ٢٣٦ هـ فى عهد الخليفة المتوكل العباسى ثم تفكك النظام السياسى واستبد الأتراك بالنفوذ وظهرت مأساة الخلافة العباسية منذ عام ٢٤٨ هـ فصـاعدا .

واليكم رواية الكندى عن احداث العصر العباسى فى مصر :

وعمد صالح بن على العباسى فى المحرم سنة ١٣٣ هـ الى أخذ البيعة لأبى العباس ، ويشير الكندى الى تصفية المقاومة الأموية بالقتل والسجن ، واستسلم بعض الأمويين فلم يعفهم

الاستسلام من القتل ، كما يشير الى استقرار الأوضاع الاقتصادية اذ أمر الوالى للناس بأعطياتهم للمقاتلة والعيال وقسمت الصدقات على اليتامى والمساكين ، واستمال صالح الكثيرين من وجوه أهل مصر وحملهم معه صحابة للخليفة أبى العباس منهم الأسود بن نافع بن أبى عبيدة من ولد عقبة ابن نافع وعبد الرحمن بن عتبة المعافرى ومحمد بن عبد الرحمن ابن معاوية الخديجى ، ووزعت الاقطاعات على الذين دخلوا فى الدعوة العباسية واقطعوا منازل فى منية بولاق والاسكندرية وأرضا فى الميمون وقرى أهناس [1] .

وكانت ولاية أبى عون عبد الملك بن يزيد فى مستهل شعبان سنة ١٣٣ واستمر خروج القبط فخرج أبو مينا القبطى بسمنود فقضى عليه ، وللمرة الأولى يجمع صالح بن على بين مصر وفلسطين وافريقية وعاد صالح بن على للمرة الثانية فى ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٦ هـ .

وبدأت مصر تحتل مكانها من سياسة العباسيين فى المغرب فقد ولى أبو عون عبد الملك بن يزيد على جيوش المغرب وخرج وفد من أشراف مصر دعاة لأهل افريقية وخرجوا مع أبى عون فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦ ، واستخدمت الحملات البحرية ، اذ بعث المثنى بن زياد الخثعمى فى شوال سنة ١٣٦ هـ الى الاسكندرية ليجهز المراكب الى طرابلس [2] .

---

(١) الكندى ص ١٠١
(٢) الكندى ص ١٠٢

وتوفى أبو العباس فى ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ وخلفه أبو جعفر عبد الله بن محمد فأقر صالح بن على على صلاتها وخراجها . وعادت حملة المغرب من حيث ذهبت وكوفىء المصريون على تعاونهم بزيادة أعطياتهم ، بل استعان صالح ابن على بالعرب المصريين فى القضاء على ثورة الحكم بن ضبعان بفلسطين ، ولما خرج صالح الى فلسطين خرج معه نفر من وجوه أهل مصر .

ثم كانت ولاية أبى عون عبد الملك بن يزيد للمرة الثانية باستخلاف صالح بن على اياه فى رمضان سنة ١٣٧ هـ وقد احتال المنصور حتى عزل صالحا بن على عن مصر وفلسطين كما عزل عامله أبا عون .

وتولى موسى بن كعب من قبل أبى جعفر المنصور — وهذه بداية تولية رجال الحزب فى عهد المنصور فقد كان موسى بن كعب من نقباء بنى العباس — لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الثانى سنة ١٤١ هـ وعزل يوم الأربعاء لست بقين من ذى القعدة سنة ١٤١ هـ .

وخلفه محمد بن الأشعث الخزاعى ولاه المنصور على الصلاة والخراج يوم الاثنين لخمس خلون من ذى الحجة سنة ١٤١ هـ . واستمرت مصر أيضا قاعدة لعمليات المغرب فقد عقد هذا الوالى لأبى الأحوص عمرو بن الأحوص على جيش وبعث به الى المغرب لقتال أبى الخطاب عبد الأعلى بن الشيخ الأباضى

بغدامس [1] ، ثم كانت ولاية حميد بن قحطبـة بن شبيب يوم الجمعة لخمس خلون من رمضان سنة ١٤٣ هـ ، كما ظهرت بوادر الدعوة العلوية فى عهد حميد بن قحطبة فقـد قدم مصر على ابن محمد بن عبد الله العلوى داعية لأبيه وعمه . ولما تولى يزيد ابن حاتم يوم الاثنين للنصف من ذى القعـدة سنة ١٤٤ هـ ظهرت دعوة العلويين فى مصر وبايع الكثيرون عليـا بن محمد ابن عبد الله بن الحسن العلوى وتولى أمر دعوته خالد بن سعيد ابن ربيعة ، وأشعل أنصاره الثورة فى ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ فدخلوا المسجد الجامع فى منتصف الليل ونهبوا بيت المال ، وأيد يزيد بن حاتم نفر من أهل مصر ، واستطاع يزيد أن يخمد الفتنة ثم قدمت الخطبـاء الى مصر برأس ابراهيم بن عبـد الله فى ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ ، ووضعوه فى المسجد الجامع ، واختفى على بن محمد بن عبد الله الحسنى [2] .

ويبدو أن ثمة حروب فى بلاد النوبة قد اشتعلت فى العصر العباسى فى ذلك الوقت ، فالكندى يشير الى أن يزيد بن حاتم عقد لعبد الأعلى بن سعيد الجيشانى على خيل ووجههم الى بلاد الحبشة وكانت خارجة خرجت بها عليهم ، وضم يزيد بن حاتم برقة الى عمـل مصر وهو أول من ضمها اليـه وولى عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة الشيبانى سنة ١٤٨ هـ . وقامت ثورة للقبط أيضـا بسخا ونابذوا ، وخرجت حمـلة أميرها

(١) الكندى ص ١٠٩
(٢) الكندى ص ١١٤

عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى سنة ١٥٠ هـ وساروا الى شبرا سنباط وقاتلوا ابن عبد الرحمن وانضم اليهم أهل البشرود والأوسية والتخوم وقد عقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجـوه أهل مصر وانصرف الجيش الى الفسطاط منهزما [١] .

ثم وليها عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الحديجى يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ١٥٢ هـ وهو أول من خطب فى السواد . وتوفى يوم الأحد مستهل صفر سنة ١٥٥ هـ ، ثم خلفه أخوه محمد بن عبد الرحمن بن معاوية الحديجى فمات وهو واليها ليلة السبت للنصف من شوال سنة ١٥٥ هـ ، ثم تولى موسى بن على بن رياح اللخمى وفى عهده قامت ثورة القبط فى بلهيب سنة ١٥٦ هـ فخرج الجند فهزموهم ثم وليها عيسى بن لقمان الجمحى من قبل المهدى يوم الاثنين لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة سنة ١٦١ هـ ، وخلفه واضح مولى أبى جعفر سنة ١٦٢ هـ وهو أول مولى تولى الامارة فى مصر منذ الفتح . وخلفه منصور بن يزيد بن منصور الرعينى يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ١٦٢ وخلفه يحيى بن داود الخرسى الشهير بابن موردود من قبل المهدى فى ذى الحجة سنة ١٦٢ هـ وكان أبوه تركيا وكان من أشد الناس سلطانا وأعظمهم هيبة . ولما ولى مصر منع عن اغلاق

(١) الكندى ص ١١٦

الأبواب بالليل ومن أهل الحوانيت من غلقها حتى حطوا عليها شرائح القصب تمنع الكلاب عنها ، ومنع حرس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وهو الذى أخذ أهل مصر بلبس القلانس الطوال فى الدخول فيها على السلطان يوم الاثنين والخميس وأخذ بذلك الفقهاء والأشراف وأهل البيوتات .

ثم وليها سالم بن سوادة التميمى لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٦٤ هـ وصرف عنها سابع ذى الحجة سنة ١٦٤ هـ ، وخلفه ابراهيم بن صالح بن على العباسى وهو أول أمير يليها من بنى العباس من قبل المهدى يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٦٥ هـ . وبنى ابراهيم بن صالح داره العظمى المعروفة بدار عبد العزيز ثم وهبها عند خروجه لآل عبد الرحمن بن عبد الجبار ، وفى عهده وقعت ثورة دحية ابن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر وثار ومنع الأموال ودعا لنفسه بالخلافة وعزل ابراهيم بن صالح لتراخيه فى قمع الثورة [١] ، وبدأت الدولة العباسية تواجه المتاعب فى مصر فى ولاية موسى بن مصعب الختعمى الذى ولى فى ٧ ذى الحجة سنة ١٦٧ هـ ، وقد تشدد فى الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به وجعل خراجا على أهل الأسواق والدواب ، وبدأت نذر الثورة بين أهل الحوف وتحالفت القيسية واليمانية وولوا عليهم معاوية بن مالك واتفقوا مع أهل

---

(١) الكندى ص ١٢٤

الفسطاط فأعطوهم العهــود والمواثيق أن يتراجعــوا اذا كان اللقاء . وخرج موسى فى جنــد الفسطاط ونشبت الحرب مع القيسية واليمانية فتراجع أهل الفسطاط وهزم موسى وقتل فى ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ . كما عقد لعبد الرحمــن بن موسى فى خمسة آلاف من أهل الديوان وبعثهم الى الصعيد لقتال دحية ابن مصعب ، وولى دحية على الشرقية يوسف بن نصير التجيبى ، واستمرت الحرب مع دحية بن مصعب فى عهــد الوالى عسامة ابن عمرو المعافرى ، فقد التقى أنصار دحية مع قوات الدولة فى مديرية الشرقية ولم ينتصر أحد الفريقين وذلك فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٦٨ هـ .

ثم تولى الفضل بن صالح بن على العباسى فى المحرم سنة ١٦٨ هـ وكان عليه أن يواجه الفتن التى اشتعلت فى كل مكان : لذلك دخل مصر فى المحرم سنة ١٦٩ ومعه عسكر عظيم ، جاء بهم من الشام من أهل قنسرين وأهل حمص وأهل دمشق وأهل الأردن وأهل فلسطين .

وكانت دعوة دحية قد فشت فى الناس وسارع الناس الى دحية وكاتبوه ودعوه الى دخول الفسطاط . وجند الفضــل الجيوش فولى سفيان القائد على الجند وعسكر بالجيزة وعقد لأبى زبان على القيسية وأرسل حملة بالنيل بقيادة الزهرى ، والتقى سفيان القائد بجيش دحية ببويط وقتــل قائد جيش دحية وتقهقر أصحابه . وسار دحية الى طريق الواحات وأرسل العباسيون حملة الى الواحات يقودها عبد الله بن على الحسنى .

وكان أنصار دحية قد نقموا عليه وانفضوا عنه وانتصر الجيش العباسي على قوات دحية .

ثم تولى على بن سليمان العباسى فى شوال سنة ١٦٩ هـ ، وأقره هرون الرشيد على الولاية . وفى عهـده قدم ادريس ابن عبد الله الى مصر ولقى الوالى سرا وأعلمه أنه خارج الى المغرب فتستر عليه الى أن هرب . ثم خلفه موسى بن عيسى العباسى ، ثم مسلمة بن يحيى البجلى فى رمضان سنة ١٧٢ هـ ، ثم محمد بن زهير الأزدى فى ٢ شعبان سنة ١٧٣ هـ وشهد عهده قيام ثورة للجند يقال لهم القديدية مطالبين بأعطياتهم ، وصرف عن الولاية فى سابع ذى الحجة سنة ١٧٣ . وخلفه داود بن يزيد المهلبى فتقدم هو وابراهيم بن صالح العباسى لمحاربة القديدية واخراجهم من مصر وذلك فى ١٤ من المحرم سنة ١٧٤ هـ . وقد أخرج القديدية من الفسطاط الى المغرب والمشرق وطرد منهم قوم بالبحر الى الشام فظفرت بهم الروم فأسرتهم . وصرف داود فى ٦ المحرم سنة ١٧٥ هـ وخلفه موسى بن عيسى للمرة الثانية فى ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ فزاد فى المسجد الجامع ، زاد فيه الرحبة التى تقابل الصيارفة وهى نصف الرحبة المنسوبة الى أبى أيوب . وخلفه ابراهيم بن صالح العباسى للمرة الثانية ، ثم عبد الله بن المسيب بن زهير الضبى لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ١٧٦ هـ ، ثم اسحق بن سليمان مستهل رجب سنة ١٧٧ هـ . وفى عهده تجـددت الثورات مع العرب بسبب زيادة الخراج على الزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج أهل

الحوف وعسكروا ، فبعث الجيوش فحاربهم فهزموه . وعقد الرشيد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم وبعث به الى مصر فنزل الحوف فلقيه أهله بالطاعة وأذعنوا لأداء الخراج فقبل هرثمة . ثم تولى هرثمة بن أعين فى ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وسار الى افريقية [1] ، وخلفه عبد الملك بن صالح للمرة الثانية ، ثم عبد الله بن المهدى العباسى فى ١٢ المحرم سنة ١٧٩ ، وموسى ابن عيسى للمرة الثالثة . وبدأت ظاهرة الاستخلاف منذ تلك الأيام وهى أن لا يقبل الوالى الى البلاد بنفسه انما يبقى فى العاصمة ويستخلف عليها . فقد ولى عبد الملك بن صالح من قبل الرشيد ولم يدخلها واستخلف عليها عبد الله بن المسيب ولما تولاها عبد الله بن المهدى العباسى استخلف عليها . ولما تولى موسى بن عيسى استخلف عليها يحيى بن موسى بن عيسى . ولما عاد اليها عبد الله استخلف داود بن جياش وكذلك فعل اسماعيل ابن صالح الذى وليها من قبل الرشيد فاستخلف عوف بن وهب الخزاعى . ثم وليها اسماعيل بن عيسى العباسى فى جمادى الآخرة سنة ١٨٢ هـ ثم وليها الليث بن الفضل فى ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ ثم استخلف عبد الغنى بن عدى الحَجْرى كما استخلف مرة أخرى هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج . وكانت مسألة الخراج من أهم أسباب ثورات العرب فى مصر فقد ثار أهل الحوف على الليث بن الفضل لأنه بعث

---

(١) الكندى ص ١٣٦

بمساح يمسحون الأرض وانتقصوا من القصبة أصابع ، فعسكروا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر سنة ١٨٦ هـ فهزموه ومنعوا الخراج . وكتب الى الرشيد أنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش يبعث به . ثم وليها أحمد بن اسماعيل العباسى يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ ثم عبد الله ابن محمد العباسى ، فاستخلف لهيعة بن عيسى بن لهيعة . ثم وليها الحسين بن جميل لعشر خلون من رمضان سنة ١٩٠ هـ ، وقد عاد أهل الحوف الى الثورة وامتنعوا من أداء الخراج . وخرج أبو الندى مولى بلى فى نحو من ألف رجل يقطع الطريق بأيلة . ثم أغار على بعض قرى الشام وانضم اليه قوم من جذام فأرسل الرشيد يحيى بن معاذ لقتالهم فهزمهم ثم سار يحيى ابن معاذ فى جيشه فنزل ببلبيس ودان له أهل الحوف بالخراج فى ١١ شوال سنة ١٩١ هـ . وخلفه مالك بن دلهم الكلبى لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ١٩٢ هـ . وفى عهده نقل الرشيد الكثير من عرب الحوف من مصر ، وورد كتاب الرشيد على يحيى بن معاذ يأمره بالخروج اليه فكتب الى أهل الأحواف : « أن أقدموا حتى أوصيكم مالك بن دلهم وأدخل فيما بينكم فى أمر اخراجكم ، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد أعد لهم القيود فأمر الأبواب فأخذت ثم دعا الحديد فقيدهم وتوجه بهم للنصف من رجب سنة ١٩٢ » [1] . وخلفه

(١) الكندى ص ١٤٤

الحسن بن التختاخ واستخلف أبا رجب العلاء بن عاصم يوم الاثنين لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ١٩٣ وفى عهده توفى الرشيد . ثم ولى مصر حاتم بن هرثمة من قبل محمد الأمين ، وظهر جيش الأبناء فى عهده فقدم ألف من الأبناء وفرض لهم العطاء . واستمرت ثورات العرب فقد ثار أهل تنو وتمى وعقدوا عليهم لعثمان بن مستنير الجذامى فبعث اليهم حاتم السرى بن الحكم وعبد العزيز بن عبد الجبار الأزدى وعبد العزيز الوزير الجروى فهزموا ودخل حاتم الفسطاط ومعه مائة من وجوه اليمانية رهائن .

ثم تولى جابر بن الأشعث الطائى من قبل الأمين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ . وقد عاصر هذا الوالى فتنة الأمين والمأمون . وخلع محمد الأمين أخاه عن ولاية العهد وترك الدعاء له على المنابر ، وعهد محمد الى ابنه موسى فتشاور الجند بينهم فى خلع الأمين غضبا للمأمون . وأول من أظهر ذلك بمصر محمد بن صغير والسرى بن الحكم وتبعهم أهل خراسان وبايعهم نفر يسير ثم انضم اليهم من أهل مصر زرعة ابن معاوية بن قحزم الخولانى وابنه الحارث وهاشم بن عبد الله ابن حديج وابنه هبيرة . وكانت هذه الأحداث مما رفع من شأن السرى بن الحكم . وكتب المأمون الى أشراف مصر يدعوهم الى القيام بدعوته فأجابوا سرا ، ثم ان عباد بن محمد بن حيان مولى كنده أحضر الجند الى المسجد الجامع ودعاهم الى خلع الأمين فأجابه الناس وبايعوا للمأمون فى الاثنين من جمادى الآخرة

سنة ١٩٦ هـ ثم كانت البيعة العامة للمأمون فى ٨ رجب سنة ١٩٦ هـ ، وكان عباد بن محمد بن حيان أول ولاة المأمون فى مصر فى ٨ رجب سنة ١٩٦ هـ .

ولم يستسلم الأمين لهذا التطور فكتب الى ربيعة بن قيس الحرشى رئيس قيس بالحوف يوليه على مصر ، وكتب الى قوم آخرين بمعاونته وأن يستعين بأهل الحوف كلهم [1] . وساروا الى الفسطاط لمحاربة أهلها فحفر عباد حول الفسطاط خندقا ، وعقد عباد لابراهيم بن حوى على بلدتى بنا وسنهور وسندفا فالتقى ببعض الثوار عند دمرو وسار ربيعة بن قيس الذى ولاه الأمين الى الفسطاط فنزل على الخندق فى ربيع الآخر سنة ١٩٧ هـ . ودارت المناوشات ثم انصرفوا ، ثم جاءت وفود ربيعة الى الخندق فكانت المناوشات وهزمت ربيعة وعادت للقتال مرة أخرى فأرسل عباد والى المأمون جيشا لقتالهم فى ديارهم فى عمريط ، ولكن القائد الذى أرسله ويدعى عبد العزيز الجروى مضى فى قومه الى فاقوس ومعه لخم وجذام ثم مضى الى بلبيس وبعث عمالا يجبون الخراج وسار أهل الحوف الى الفسطاط وقامت الحرب لولا أن ورد الخبر بمقتل الأمين فى المحرم سنة ١٩٨ هـ فكف الفريقان عن القتال .

ثم تولى المطلب الخزاعى من قبل المأمون للنصف من ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ، وظلت فى عهده ذيول الفتن السابقة ، فقد

---

(١) الكندى ص ١٥٠

اجتمع ربيعــة بن قيس ويزيد بن خطاب على الحرب بأســفل الأرض وقاتلهم بشطنوف . وتفرقت كلمة قيس وسكن أمرهم ، وقد ثار الجند بسبب منع الأعطيات والعسف ودعوا الى المطلب فى المحرم سنة ١٩٩ [١] .

وتولى المطلب بن عبد الله للمرة الثانية باجماع الجند فى ١٤ المحرم سنة ١٩٩ هـ ، وقد حدثت فى عهده الفتن والثورات الكثيرة التى انتهت بولاية السرى بن الحكم فقد خرج عليه عبد العزيز الجروى وسار الى تنيس وقامت فتنة عمت البلاد كلها ، كان أبطالها عبد الله بن العبــاس بن موسى والمطلب ابن عبد الله وعبــد العزيز الجروى والسرى بن الحكم . ذلك أن العباس بن موسى نزل بالحوف يطلب تأييد أهلهــا ونزل بلبيس فدس له المطلب السم فمات سنة ١٩٩ هـ ونكل المطلب بمن ناصروا العباس أو اتصلوا به ، وحالف المطلب أهل الحوف بعد موت العباس وولى بعضهم على أسفل الأرض ، وأراد أن يتقرب من الجروى وأن يوليه فأبى وسار فى مراكبه حتى شطنوف وأراد المطلب أن يهــادنه فبعث اليه السرى بن الحكم ولكنه لاطف السرى وقابله فى النيل عند سندفا فتمكن من أسره . وهزم الجروى أنصــار المطلب بســفط سليط فى أول رجب سنة ١٩٩ هـ ، وامتد نفوذ الجروى الى الاسكندرية واستعان بالأندلسيين لطرد عامل المطلب عنها . وأقبل عبد الله بن العباس

---

(١) الكندى ص ١٥٤

ابن موسى الى مصر مطالبا بدم أبيه . وحالف الجروى وسار بجيش فى البر والبحر حتى نزلوا الجيزة سـنة ٢٠٠ هـ فهزم الجروى وراح المطلب ينكل بالذين ناصروه . ولما ضيق المطلب الخناق على الجروى أطلق السرى بن الحكم من السجن وعاقده على محاربة المطلب ، وقامت حرب فى الفسطاط انتهت بفـوز السرى ، وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم اليه الأمر ويخرج من مصر وخرج المطلب وسار الى مكة .

وتولى السرى بن الحكم باجماع الجند عليـه على صلاتها وخراجها مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ [1] . ووقعت فى عهد ولاية السرى الأولى ثورات فى الاسكندرية ، ذلك أن عمر بن هلال أخرج عامل المطلب منها واستعان بالأندلسيين وبطائفة الصوفية وعلى رأسهم أبو عبد الرحمن الصوفى واستعانوا بلخم . ثم خرج الأندلسيون والصوفية ولخم على عمر بن هلال ومعهم زهاء عشرة آلاف ، وحوصر فى قصره ، ثم قامت الحـرب بين لخم والأندلسيين فانتصروا على لخم وولوا أبا عبد الرحمن الصوفى واستبد الأندلسيون بالمدينة يولون عليها من يشاءون وحاربوا بنى مدلج ونفـوهم من البـلاد . وأراد الجروى أن يؤدب الأندلسيين فجمع لهم ٥٠ ألفـا وهم بحصـار الاسكندرية والقضاء عليهم لولا أن هدده السرى من الخلف فرجع سـنة ٢٠١ هـ . ودعا الأندلسـيون الى السرى ثم خرج الجنـد

(١) الكندى ص ١٦١ ــ ١٧٢

الخراسانيون على السرى وانضم اليه جند الفسطاط وعزل السرى فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٠١ هـ .

واستمر ولاة مصر يوليهم زعماء الجند فقد ولوا سليمان ابن غالب بن جبريل البجلى يوم الثلاثاء ٤ ربيع الأول سنة ٢٠١ هـ . ولم يكف السرى عن الفتنة فقد نهب الجند داره ففر الى أخميم بصعيد مصر ولحق به قوم من مدلج وسار بهم الى الفسطاط فالتقى بجيش سليمان بن غالب عند قمن فهزم السرى وأسر وردوه الى اخميم مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة ٢٠١ . وتنكر الجند لسليمان وخلع ، وقام بالأمر على بن حمزة العباسى الى أن ولى المأمون السرى بن الحكم للمرة الثانية .

وكانت ولاية السرى من قبل المأمون معناها نهاية لسيطرة الجند واستبدادهم بالسلطان . واستخرج السرى من الحبس ودخل الفسطاط يوم الأربعاء ١٢ شعبان سنة ٢٠١ هـ . ويبدو أن السرى استطاع أن يقر الهدوء والسكينة فى البلاد فتتبع كل من كان قد حاربهم بالقتل والصلب حتى انتظم سلطانه وقوى الى أن اضطربت أمور مصر مرة أخرى بسبب بيعة المأمون لعلى بن موسى الرضا سنة ٢٠٢ هـ . وما كان من خروج ابراهيم بن المهدى فى بغداد واتصاله بالفتنة القائمة فى مصر فاندلعت مرة أخرى .

وأيد المهدى قوم من الفسطاط وأيده عبد العزيز الجروى بأسفل الأرض وسلامة الطحاوى بالصعيد ودعوا للمهدى وولوا عليهم عبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى ، ولما هزم

الأزدى انضم الخارجون الى الجروى لمنعته وشدة سلطانه . وكان عبيد بن السرى قد هزم سلامة الطحاوى ولكنه فر الى الجروى وانضم اليه . وانطلق سلامة الطحاوى الى للصعيد وعزل عمال السرى . واستعد الجروى والسرى للحرب فى البر والبحر والتقوا عند شطنوف فقتل ميمون بن السرى سنة ٢٠٣ هـ . وأراد الجروى أن يدخل الفسطاط لولا أن رجاه أهلها بالكف عنها الى أن وردت الأخبار من بغداد بموت على الرضا . وكانت الاسكندرية قد خرجت على الجروى ودعت للسرى فسار الجروى فى طريقه الى الاسكندرية وهزم تحالفا بين بنى مدلج وبين القبط بمدينة سخا وحاصر الجروى الاسكندرية ، وفى ذلك الوقت كان داود أخو السرى قد سار الى الصعيد لقتال سلامة الطحاوى وهزم ثم غدر السرى بوجوه الجند فى الفسطاط وأغرقهم فى النيل ، كما مات السرى بالفسطاط فى نفس هذه السنة .

وعاد الجند الى مبايعة أبى النصر بن السرى مستهل جمادى الآخرة سنة ٢٠٥ هـ ، وقد استمرت سطوة الجروى فى عهد هذا الوالى أيضا حتى ان أبا النصر لم تكن له سلطة الا على الفسطاط والصعيد ، أما أسفل الأرض والحوف الشرقى فكانا للجروى ، وقامت الحرب بينهما فى النيل عند شطنوف وهزم أحمد بن السرى ثم التقوا بدمنهور ، حتى ليقال ان القتلى بلغوا نحوا من سبعة آلاف وتبعته مراكب الجروى الى جسر

الفسطاط وهم بحرق هذا الجسر لولا أن رجاه أهل مصر فكف عنها ثم تم الصلح على أن يكف أحدهما عن الآخر .

وبايع الجند عبيد الله بن السرى يوم الثلاثاء لتسع خلوز من شعبان سنة ٢٠٦ هـ ، واستمرت الحرب عنيفة طاحنة بين عبيد بن السرى وبين الجروى .

وقد ظل الصلح معقودا بين الرجلين حتى سنة ٢٠٦ هـ حين عقد المأمون لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وبعثه فى جيش من ربيعة وافناء الناس حتى دخل مصر ، وراسل عبيد الله بن السرى فامتنع عن الطاعة والتقى بخالد بن يزيد عند فاقوس من حوف مصر الشرقى . وانضم الجروى الى خالد بن يزيد والتقى بقوات عبيد الله سنة ٢٠٧ ، ولكن خالدا تقهقر الى دمنهور . ومل الفريقان الحرب وتراجع خالد الى أرض الحوف وتخلى الجروى عن خالد . ولما انتهى الفيضان كان عبيد معسكرا فى الجيزة وخالد بن يزيد معسكرا فى نهيا الى أن هزم خالد وأسر فمن عليه عبيد وأطلقه فعاد الى الحجاز .

وأذعن المأمون للأمر الواقع فولى عبيدا على ما بيده وضمنه خراجه وولى عليا الجروى على ما بيده وضمنه خراجه ، وعادت الحرب مرة أخرى بين عبيد وبين الجروى ، وظل الخصمان يتبادلان النصر والهزيمة حينا فى تنيس وحينا فى دمياط أو فى محلة شرقيون الى أن قدم عبد الله بن طاهر .

ثم كان قدوم عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة ٢١٠ [١] . وقد حالفه على بن الجروى لدى قدومه ، وقدم اليه الأموال والمساعدات وطلب الى عبيد بن السرى الدخول فى الطاعة فأبى وحفر الخنادق واستعد للحرب ، وسار ابن طاهر الى بلبيس . وقد أمن المأمون عبيدا فى المحرم سنة ٢١١ هـ ، فكتب عبد الله ابن طاهر كتاب أمان وأشهد فيه الشهود من الجند والفقهاء والأشراف فى صفر سنة ٢١١ هـ ، وخلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج الى المأمون ، وصدر آمر المأمون بأن يتولى البلاد عبد الله بن طاهر فى ربيع الأول سنة ٢١١ هـ ، ثم فرغ عبد الله بن طاهر لأمور الاسكندرية ومعه قواد العجم وحاصرها فاستأمن أهلها وصالح الأندلسيين على أن يخرجهم من الاسكندرية ، وعاد ابن طاهر الى الفسطاط ، وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع ، وتوجه الى العراق .

ثم تولى عيسى بن يزيد الجلودى باستخلاف ابن طاهر له وخلفه عمير بن الوليد باستخلاف المعتصم بن الرشيد سنة ٢١٩ ولم يكف العرب عن الفتنة فقد استعد عمير لحرب أهل الحوف واصلاح أمر قيس وردها الى الطاعة فاستعدوا لقتاله وانضم اليهم اليمانية والجروى وفشلت رسل المأمون الى اليمانية والقيسية ولكنهم رفضوا الصلح والتقى الجمعان بمنية مال الله فهزم أهل الحوف ولكنه قتل باليهودية .

---

(١) الكندى ص ١٨٠

ووليها عيسى بن يزيد الجلودى للمرة الثانية من قبل المعتصم واستمرت ثورات أهل الحوف أيضا وقد حاربهم بمنية مطر ، ثم سار حتى نزل النويرة وحفر خندقا ولكن عرب الحوف هاجموه فانهزم الى الفسطاط فى رجب سنة ٢١٤ هـ . وقدم المعتصم بنفسه فى أربعة آلاف من أتراكه ، ولما رفض أهل الحوف الطاعة قاتلهم فى شعبان سنة ٢١٤ هـ [1] ، ثم نزل بلبيس ثم دخل الفسطاط فى ٨ رمضان سنة ٢١٤ هـ ، ثم خرج الى الجيزة ثم توجه الى الشام غرة المحرم سنة ٢١٥ هـ ومعه الأتراك والأسرى ، واستخلف عبدويه بن جبلة مستهل المحرم سنة ٢١٥هـ وقد أخمد ثورة لأهل الحوف . وقدم الأخشين حيدر بن كاووس الصغدى الى مصر ومعه على بن عبد العزيز الجروى ، وأمر عليا بدفع الأموال التى عليه فلما رفض قتله ، ثم مضى الى برقة واستخلف عيسى بن منصور مستهل سنة ٢١٦ هـ ، ومن الغريب أن قامت ثورة فى الدلتا وتحالف العرب مع القبط فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ وأخرجوا العمال ، وخرج الأفشين لحربهم فالتقى بهم بأشليم فهزمهم وأسر منهم ، ومضى الى الحوف فهزمهم وسار منها الى شرقيون فهزمهم ومنها الى دميرة . وأقبل الأفشين فى جنوده الى الاسكندرية فهزم بنى مدلج فى خربتا ومضى فى طريقه منتصرا حتى الاسكندرية فدخلها وهرب زعماء الفتنة لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ وامتنع أهل البشرود حتى قدم المأمون .

---

(١) الكندى ص ١٨٨

وقدم المأمون لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ هـ فصرف عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر » [1] . ورأى المقياس وأمر باقامة جسر آخر للفسطاط وأرسل جيشا الى الصعيد للقضاء على الفتنة ، ورحل الى سخا فى المحرم سنة ٢١٧ هـ ، ثم سار الى البشرود . وكان الأفشين قد هزم الثوار وحكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال فبيعوا وسبى أكثرهم . ثم رجع الى الفسطاط يوم السبت لست عشرة من صفر سنة ٢١٧ هـ ، ومضى الى حلوان وأقام بها ثلاثة أيام وارتحل المأمون يوم الخميس ١٨ صفر فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان نحو خمسين يوما .

ووليها كيدر نصر بن عبد الله وأخذ الناس بمحنة خلق القرآن سنة ٢١٨ هـ وأخذ بها الفقهاء والمحدثين والمؤذنين وظل الناس على ذلك حتى قدم المتوكل سنة ٢٣٢ هـ . وتوفى المأمون بأرض الروم وبويع للمعتصم . وأمر باسقاط من بالديوان من العرب وقطع أعطياتهم [2] . ولما قطع العطاء خرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام واجتمع اليه نحوا من خمسماية رجل . وقاتل المظفر بن كيدر يحيى بن الوزير الجروى فى بحيرة تنيس فأسره وهزم أصحابه فى جمادي الأولى سنة ٢١٩ هـ ،

---

(١) الكندى ص ١٩٠

(٢) الكندى ص ١٩٣

وأصبحت مصر اقطاعا لأشناس فدعوا له بها [1] . وقد ولى أشناس عليها موسى بن أبى العباس سنة ٢١٩ هـ ثم عاد مالك بن كيدر فى ربيع الأول سنة ٢٢٤ هـ . ثم وليها على بن يحيى الأرمنى من قبل أشناس سنة ٢٢٦ هـ ، وفى عهده توفى المعتصم وخلفه الواثق فولى عيسى بن منصور للمرة الثانية من قبل أشناس فى ٧ المحرم سنة ٢٢٩ هـ وتوفى أشناس وخلفه ايتاخ فأقره عليها وأخذت البيعة للمتوكل يوم الجمعة ١٢ المحرم سنة ٢٣٣ هـ . ثم وليها هرثمة بن النضر الجبلى من قبل ايتاخ يوم الأربعاء لست خلون من رجب سنة ٢٣٣ هـ وأمر المتوكل بترك الجدل فى القرآن يوم الجمعة لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٤ ، ووليها حاتم بن هرثمة ثم على بن يحيى الأرمنى للمرة الثانية من قبل ايتاخ ، ثم وليها اسحق بن يحيى بن معاذ . وقد أمر المتوكل باخراج الطالبيين من مصر الى العراق وفرض فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطى كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا وفرقت فيهم الثياب ، ثم خرجوا من الفسطاط فى ١٠ رجب سنة ٢٣٦ فقدموا العراق وأمروا بالخروج الى المدينة فى شوال سنة ٢٣٦ هـ . ثم وليها خوط بن عبد الواحد ابن يحيى من قبل المنتصر يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٢٣٦ هـ . ثم وليها عنبسة بن اسحق الضبى من قبل المنتصر وكان مشهورا بمذاهب الخوارج وفى ولايته نزلت الروم

---

(١) الكندى ص ١٩٤

دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ هـ فملكوها وقتلوا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة ، وانسحبوا الى تنيس فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط . ودعى للفتح بن خاقان فى ربيع الأولى سنة ٢٤٢ هـ ، وكان عنبسة آخر من وليها من العرب وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع . ووليها يزيد بن عبد الله التركى لعشر بقين من رجب سنة ٢٤٢ هـ ، وأمر بالمختارين فجعلوا فى الكور ، وخرج الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة ٢٤٥ هـ ، ورجع الى الفسطاط فلما كان بينها ، بلغه أن الروم نزلوا الى الفرما فرجع الى الفرما بعد أن انسحبوا منها ، وورد كتاب الخليفة بابتناء المقياس الهاشمى للنيل وبعزل النصارى عن قياسه ، فجعل يزيد عليها أبا الرداد المعلم وأجرى عليه سليمان بن وهب عامل الخراج سبعة دنانير ، وذلك فى سنة ٢٤٤ هـ . وتوفى المتوكل وأخذت البيعة للمنتصر .

وتوفى الفتح بن خاقان وورد كتاب المنتصر بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد ، ومن كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصومه فيه . وتوفى المنتصر فى ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ ، وبويع المستعين .

وأخرج يزيد ستة من الطالبيين الى العراق فى رمضان سنة ٢٥٠ هـ ثم أخرج ثمانية فى رجب سنة ٢٥٥ هـ . وخلع المستعين

فى المحرم سنة ٢٥٢ هـ ، وبويع المعتز فى سنة ٢٥٢ ، وقامت ثورة بالاسكندرية تزعمها بنو مدلج الصليبية والموالى . ولكن زعيم الثوار جابر بن الوليد المدلجى انتصر وقوى أمره وأتاه الناس من كل ناحية ولحق به جريج النصرانى وكان من شرار النصارى . وولى الولاة على سسنهور وسخا وشرقيون وبنا وانضم اليهم ثائر علوى اسمه عبد الله بن أحمد بن محمد ويقال له ابن الأرقط فولوه القيــادة . واستفحل أمر الثوار وامتد سلطانهم الى أن قدم مزاحم بن خاقان معينا ليزيد بن عبد الله فقدمها فى جيش كبير يوم السبت ١٣ بقين من رجب ســنة ٢٥٢ هـ . وأمر الثوار بالدخول فى الطاعة ، ودارت الحرب بين الفريقين الى أن انتهت بهزيمة الثوار واستسلامهم . وقضى على بعض الثورات الأخرى فى الحوف . ثم وليها مزاحم بن خاقان من قبل المعتز سنة ٢٥٣ هـ .

وبعث جيشا للقضاء على ثوار الاسكندرية وسار هو الى الحوف الشرقى للقضاء على الثوار هناك . ووليها أحمــد بن مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٤ هـ ، واستخلف عليها أزجور ووليها أزجور باستخلاف أحمد بن مزاحم ، وفى عهده ثار بغا الكبير .

٥ ـ الدولة الطولونية [1]

ومن روايات الكندى نتعرف على صورة من مأساة الخلافة العباسية فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، فقد ضعف سلطان الخلفاء وضيق عليهم فى سلطانهم وامتدت يد العدوان الى أشخاصهم فكانوا يعزلون أو ينكل بهم وطما نفوذ الأتراك فى بغداد باستيلائهم على السلطة وسيطرتهم على الجيش وأجهزة الدولة ووضع أيديهم على بيت المال وتوليهم الوظائف فى العاصمة والأقاليم . وتتعرف أيضا على صورة من التطورات التى حدثت فى الأمصار الاسلامية من انحلال السلطة المركزية وعدم فعالية الخلافة وتقلص نفوذها واتتشار الفتن والقلاقل والثورات واضطراب الأوضاع الاقتصادية وبداية ضعف نفوذ العرب المهاجرة بعد اسقاطهم من الديوان وانتشارهم فى الريف وبداية اختلاطهم بأهل البلاد ، وانتشار الاسلام ، ووجود جماعات كبيرة العدد من المسلمين تواقة الى مزيد من النفوذ والسلطان ، ومزيد من الهدوء والاستقرار .

وكان الحل الحتمى لانقاذ العالم الاسلامى مما تردى فيه أن تظهر الحركات الاسلامية المستقلة لتملأ الفراغ الذى تركه انحلال سلطان الخلافة ، ولتعيد الاستقرار السياسى ولتصلح

---

(١) الكندى ص ٢١٢ ـ ٢٨٠

الأوضاع الاقتصادية وتجمع حولها أهـل البلاد لتدافع عن مصالحهم ومصالحها مع المحافظة على الارتباط الاسمى بخليفة المسلمين .

فظهرت الدولة الطولونية فى مصر كصورة من تلك التطورات التى سادت العالم الاسلامى فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى . وقد قامت الدولة فى عهد أحمد بن طولون مؤسسها الأول وتوفرت لها أسباب البقاء ، ثم استقرت أوضاع الدولة وازدهرت فى عهــد خمارويه ثم دهمها الاضمحلال بعد وفاة خمارويه ، ثم سقطت وخضعت مصر للنفوذ العباسى فى فترة صحوة الخلافة .

كان أحمد بن طولون اذن هو مؤسس الدولة ، ونلمح فى ما كتبه الكندى السلطان المحدود الذى صار اليه عقب حضوره الى مصر مباشرة ، فقد كانت له الصلاة فقط ، وكان الخراج فى يد ابن المدبر . ولم يكن له سلطان حتى على مدينة الاسكندرية وقد نهض بالميراث الثقيــل الذى آل اليــه فقضى على الفتن الداخلية التى أخفق الولاة العباسـيون فى القضاء عليها منذ اندلاعها فى عهد الخليفة المأمون . وأنشأ القوات المسلحة التى تدين له بالطاعة ، والتى كانت عدته فى تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . وكانت الفتن الداخلية فرصة لتدريب هذه القوات لتكتسب مزيداً من الخبرة . كما أصلح الأوضاع الاقتصادية المضطربة ، وبنى الميدان والمسجد الجامع ، وامتد نفوذه الى بلاد الشام ومنطقة الثغور .

ثم كان ظهور الموفق العباسي أخي الخليفة المعتمد واضطلاعه بحرب الزنج واكسابه نظـام الخلافة شيئا من القوة . وبدأ الاحتكاك بينه وبين ابن طولون وتحول الى صراع عنيف وامتد نفوذ ابن طولون الى بلاد الشام وتأكد هذا النفوذ بعد اخفاق مشروعات الموفق . وفكر المعتمد في أن يلجأ الى ابن طولون فرارا من استبداد أخيه ، وتدخل أحمد بن طولون في منطقة الثغور ثم بلغ صدامه مع الموفق الذروة فعقد مؤتمرا من الفقهاء في دمشق خلع الموفق من ولاية العهد . وكان ابن طولون من الشخصيات الفـريدة التي أظهرتها الحوادث في القرن الثالث الهجري ، ويكفي أن تقارن بينه وبين من أسلفنا ذكره من ولاة العصر العباسي .

ثم قدر للدولة أن تمضي الى مزيد من الاستقرار في عهد خليفته خمارويه فقد ولاه الجند وبايعوه بالنفوذ والسلطان ، واستطاع أن يوحد الأسرة والجيش وأن يملأ الفراغ الذي تركه أبوه ، فعمل على تأكيد نفوذه في بلاد الشام والوقوف لأطماع الموفق ، وامتد نفوذه حتى مدينة سامرا ، وسوى أموره مع الموفق العباسي واعترفت الخلافة بشرعية حكمه وبأحقية أولاده في أن يرثوا الملك من بعده ، وتطور البلاط الطولوني في عهده وازدهرت الحياة الاجتماعية وتألقت .

ثم انهارت الدولة بعد وفاة خمارويه مباشرة وانقسم الأمراء على أنفسهم يتنافسون وتفتتت وحدة الجيش وانقسم الى طوائف متعارضة متنازعة وأمتلأت أخبار هذه الفترة بالصراع والفتن

فى الوقت الذى كانت الخـــلافة قد صحت من غفوتها صحوة مؤقتة ، واستطاعت بقيادة محمد بن سليمان الكاتب أن تقتطع أملاك الطولونيين فى الشـــام وأن تغزو مصر نفسها وأن تدخل القطائع وتقضى على بنى طولون .

وعادت مصر الى الحكم العبـــاسى المباشر مرة أخرى ، وتعاقب على ولايتها عيسى النوشرى وأبو منصور تكين وذكا الأعور وهلال بن بدر وأحمد بن كيغلغ ، واضطربت أمورها الداخلية مرة أخرى وتعرضت لحملات الفاطميين التى تتابعت من تونس تريد أن تنتزع مصر من النفوذ العباسى .

واليكم رواية الكندى عن أحداث العصر الطولونى :

أحمد بن طولون فى مصر :

وليها أحمد بن طولون من قبل المعتز على صلاتها فقط يوم الخميس لسبع بقين من رمضان سنة ٢٥٤ هـ ، وولى على الشرطة بولغيا ، ثم بوران التركى ، ثم موسى بن طونيق سنة ٢٥٥ هـ . وخرج بغا الأصغر ومعه أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا بين الاسكندرية وبرقة بموضع الكنائس فى جمـــادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ ، وأيده جابر بن الوليد المدلجى ، وأتى برأســـه الى الفسطاط يوم الثلاثاء لاحـــدى عشرة بقيت من شعبان سنة ٢٥٥ هـ . وخرج الصوفى العلوى بصعيد مصر وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله ســـنة ٢٥٣ هـ ، ودخل اســـنا فى ذى القعدة سنة ٢٥٥ هـ .

وأرسل اليه ابن طولون ابن أزداد فى ٥ ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ، فهزمه هذا القائد ، فبعث بهم ابن الحسين فى ١٩ ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ، وهزم ابن الصوفى عند أخميم ثم مضى الصوفى الى الأشمونيين سنة ٢٥٩ هـ . وعند أسوان حارب ابن الصوفى أبا عبد الله العمرى فظفر به العمرى ، فعاد ابن الصوفى الى أسوان وتابعه ابن طولون حتى مضى الى عيذاب فركب البحر الى مكة . وبذلك تخلص ابن طولون من هــذه الفتن الداخلية ، وتدرب جيشه الناشىء على فنون الحرب والقتال [١] .

وكان عيسى بن الشـيخ بن السـليل الشيبانى واليا على فلسطين والأردن ، ثم تغلب على دمشق وامتنع عن حمل المال الى العراق . وكان ابن مدبر صاحب خراج مصر قد حمل الى العراق سبعماية ألف وخمسين ألف دينار فاستولى عليها عيسى ابن الشيخ ، فخرج اليه أحمد بن طولون فى صفر سنة ٢٥٦ هـ ، وكاتبه قبل أن يسير اليه ، ثم خرج اليه يوم الخميس ٦ جمادى الآخرة سنة ٢٥٦ هـ ولكن ابن طولون عاد الى الفسطاط مرة أخرى وأرسل ماجور الى عيسى بن الشيخ فهزمه وآلت بلاد الشام الى ماجور .

وتوفى المهتدى فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ ، وخلفه المعتمد فأقر أحمد بن طولون على الولاية وابتدأ أحمد فى بنيان الميدان سنة ٢٥٦ هـ ، وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى مكانها .

---

(١) الكندى ص ٢١٢

وورد كتاب يارجوخ الى أحمد بن طولون بتسلم الأعمال الخارجة عن يده من أرض مصر ، فتسلم الاسكندرية من اسحق بن دينار ، وخرج اليها فى ٨ رمضان سنة ٢٥٧ هـ ، وأمر أحمد ببنيان المسجد على الجبل فى صفر سنة ٢٥٩ هـ ، وبنى المارستان للمرضى سنة ٢٥٩ . وورد كتاب المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه فى حمل الأموال ، فكتب اليه لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى فأنفذ المعتمد نفيسا الخادم الى ابن طولون بتقليده الخراج بمصر وبولايته على الثغور الشامية وبذلك اكتمل سلطان ابن طولون فأصبحت له أمور مصر كلها [١] . وضج أهل الثغور من ولاتهم فبعث أحمد بن طولون الى أخيه موسى وهو مقيم بطرسوس فامتنع فولى عليها طخشى بن يلبرد فى جمادى الأولى سنة ٢٦٤ هـ .

وكان أبو أحمد الموفق قد طلب الى موسى بن بغا أن يعزل أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماجور التركى ، وكتب موسى بذلك الى ماجور والى دمشق فلم يستطع ، فخرج موسى فنزل الرقة ، فبدأ ابن طولون فى الاستعداد وبنيان حصن الجزيرة بين الجسرين لتكون معقلا لماله وحرمه سنة ٢٦٣ هـ ، والقيام بانشاء المراكب الحربية ، وأقام موسى بالرقة عشرة أشهر ثم اضطرب جنود موسى وطالبوه بالمسير أو الرجوع ، ثم توفى موسى فى صفر سنة ٢٦٤ هـ . ثم توفى ماجور بدمشق واستخلف ابنه على الذى دخل فى طاعة ابن طولون .

---

(١) الكندى ص ٢١٢

وشكا أهل مصر الى أحمد ضيق المسجد الجامع بجنده وسودانه فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر وبدأ فى بنائه سنة ٢٦٤ هـ .

وفى ٨ شعبان سنة ٢٦٤ هـ استخلف العباس ابنه وضم اليه أحمد بن محمد الواسطى مدبراً ووزيراً ، ودخل الرملة فأقام ماجور له الدعوة فأقره عليها ثم مضى الى دمشق فأقام على بن ماجور الدعوة له ، وبعد أن استوثق له أمرها اتجه الى حمص فلقيه عيسى الكرخى خليفة ماجور ورفض سيما الطويل صاحب أنطاكية الدعاء له فحاصره أحمد ورمى حصنه بالمنجنيق ودخلها فى المحرم سنة ٢٦٥ هـ وقتل سيما واستبيحت أمواله ورجاله ، ثم مضى الى طرسوس وقاومه أهلها فتقهقر عنها وولى عليها طخشى بن يلبرد وكان يود الاقامة بالثغـور لولا ثورة ابنه العباس ، وهكذا امتد نفوذه على بلاد الشام أيضا .

وقد اختص العباس قواداً كانوا على خوف شديد من أحمد ابن طولون فحسنوا للعباس التغلب على مصر والقبض على الواسطى ، وكتب الواسطى الى ابن طولون يبلغه ذلك ، وأشار أصحابه عليه بأن يبعد عن أبيه ويخرج عن مصر ، فقيد الواسطى وخرج الى الجيزة فعسكر بها يوم الأحد لثمان خلون عن شعبان سنة ٢٦٥ ، واستخلف أخاه ربيعة على الفسطاط ثم توجه الى الاسكندرية وضمها الى برقة . فلما قدم ابن طولون أرسل الى العبـاس كتابا ألان فيه جانبه وهم بالعـودة لولا أن فزع

مستشاروه وحرضوه على القيام ، وعزم العبـــاس على المسير الى افريقية فى جمادى الأولى سنة ٢٦٦ هـ ، فنزل لبدة وأمر بنهبها ، فتحالف الأباضية فى جبل نفوسة مع الأغالبة ، وقتــل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه وعاد الى برقة هاربا [1]. وأرســل ابن طولون جيشا الى برقة فى شــهر رمضان سنة ٢٦٧ هـ .

وأجمع أحمد بن طولون على المسير الى برقة وخرج فى عسكر عظيم ، وخرج من الفســطاط يوم الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ٢٦٨ هـ ، وأقام بالاسكندرية وبعث من هناك جيشا قاتل العباس فى أرض برقة يوم الاثنين لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٦٨ هـ ، ورجع ابن طولون الى الفســطاط يوم الثلاثاء ١٣ رجب سنة ٢٦٨ .

وأرسل ابن طولون غلامه لؤلؤ فى جيش الى الشام ولكن الموفق اســتمال لؤلؤ الى جانبه فسارع أحمــد الى الخروج واستخلف على مصر ابنه خمارويه فسار فى صفر سنة ٢٦٩ هـ ، حتى نزل دمشق . وقد ساءت الأمور فى منطقة طرسوس اذ كان يريد عزل يازمان الخادم فتمسك به أهل طرسوس وكان فى طريقه الى طرسوس لولا أن أتاه كتاب المعتمد بأنه خارج اليه وخرج المعتمد من العراق بحجة التصيد ثم سار فى طريقه الى الرقة وعلم الموفق بنبأ سيره وهو يحارب الزنج فى البصرة .

---

(١) الكندى ص ٢٢١

فكتب الى أبى اسحق بن كنداج الجزرى وأمره أن يلحق به فيرده ووعده أموالا واقطاعات . فلقى المعتمد عند الحديثة وأعاده الى سر من رأى يوم الأحد لخمس خلون من شعبان سنة ٢٦٩ هـ ، فأراد أن يكافىء اسحق بن كنداج فولاه مصر ، فعاد ابن طولون الى دمشق وأمر باحضار القضاة والفقهاء والأشراف ، وأرسل الى مصر بما جرى للمعتمد . وخرج القضاة الى دمشق وحضر هناك أهل الشامات والثغور ، فلما اجتمعوا أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع الوقف من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وحصره اياه وكتب فيه : « ان أبا أحمد خلع الطاعة وبرىء من الذمة فوجب جهاده على الأمة ، وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة » وقال : « لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه » [١] وامتنع عن الشهادة والخلع وكان ذلك يوم الخميس ١٢ ذى القعدة سنة ٢٦٩ هـ ، فأمر الموفق بلعنه على المنابر وكان مما لعن به : « اللهم العنه لعنا يغل حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » .

ثم اتجه ابن طولون الى طرسوس ولما كان بالمصيصة بعث وفداً الى يازمان الخادم يدعوه الى طاعته والدعاء له على أن يعطيه أمانا فرفض ، فزحف أحمد بن طولون الى أذنه ثم طرسوس فتحصن بها يازمان ونصب المجانيق على سورها .

---

(١) الكندى ص ٢٢٦

فنزل أحمد على سورها من شدة البرد وكثرة الأمطار والثلوج فقطع يازمان نهر البردان فغرق العسكر فرحل ابن طولون ليلا الى أذنة ومنها ارتحل الى المصيصة فأقام بها أياما حتى بلغ الفرما ودخل الفسطاط ليلا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ هـ ، وتزايدت علته الى أن توفى فى ١٠ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ وحزن عليه المعتمد ورثاه بشعر [١] .

خمارويه بن أحمد :

كانت ولاية خمارويه بعد بيعة الجند له يوم الأحد ١٠ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ ، وأحضر أخاه العباس لمبايعته فامتنع فأدخل منزلا من الميدان فكان آخر العهد به .

وبعث خمارويه الواسطى بجيش الى الشام فخرج من الفسطاط يوم الخميس ٦ ذى الحجة سنة ٢٧٠ هـ وعقد لسعد الأيسر على جيش آخر فى ذى الحجة وبمراكب كثيرة فى البحر رابطت بسواحل الشام وكان الواسطى جزعا من ابن طولون فكتب الى الموفق بكتاب يصغر فيه أمر خمارويه ويحضه على المسير . وقام الموفق من بغداد وانضم اليه اسحق بن كنداج ومحمد بن ديوداد بن أبى الساج حتى بلغوا الرقة وسلمه أهل قنسرين والعواصم ودعوا له وسار الى شيزر ثم دخل دمشق وبلغ الخبر خمارويه فخرج فى جيش عظيم يوم الخميس ١٠ صفر سنة ٢٧١ هـ ، فالتقيا بنهر أبى فطرس من أرض فلسطين

---

(١) الكندى ص ٢٣١

فى موقعة الطواحين فهزم أصحاب خمارويه وكانوا سبعين ألفا . وكان أبو العباس فى نحو أربعة آلاف واستولى على معسكر خمارويه . ومضى خمارويه لا يلوى على شيء وأقبل كمين خمارويه عليهم سعد الأيسر وفيهم أحمد بن اسماعيل العجمى وتشركين وحوطامش ، ولم يعلموا بالهزيمة وحاربوا حتى أزالوا عسكر أبى العباس فى صفر سنة ٢٧١ هـ ، ورجع أبو العباس الى دمشق ، ومضى سعد الأيسر فدخل دمشق ودعا لخمارويه ثم خرج خمارويه فى ٢٧ رمضان سنة ٢٧١ هـ ، حتى أتى فلسطين ثم عاد الى الفسطاط فدخلها ١٢ بقين من شوال سنة ٢٧١ هـ ، ثم خرج الى الشام فى ذى القعدة سنة ٢٧٢ هـ ، وقتل سعد الأيسر لخلاف بينهما ثم دخل دمشق يوم الثلاثاء ٧ المحرم سنة ٢٧٣ هـ ، وخرج من دمشق ولقى اسحق بن كنداج بأرض الرافقة ، وهزم اسحق وتبعه خمارويه حتى بلغت مقدمته سر من رأى . ثم سفر قوم بالصلح فاصطلحا وتصاهرا .

ودعا اسحق لخمارويه وكاتب الموفق فى طلب الصلح على مال يدفعه فرضى ، وكتب له بذلك كتابا قدم به فائق الخادم الى الفسطاط فى رجب سنة ٢٧٣ هـ ، يذكر فيه أن المعتمد والموفق وولده أبو العباس كتبوه بأيديهم بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات . ثم قدم خمارويه الى الفسطاط سلخ رجب سنة ٢٧٣ هـ ، ودعا للموفق . وبلغ خمارويه مسير محمد ابن ديوداد المعروف بابن أبى الساج فخرج اليه خمارويه من

مصر فى ذى القعدة سنة ٢٧٤ هـ ، فلقيه بثنية العقاب من أرض دمشق فهزم وعاد خمارويه الى الفسطاط فدخلها يوم الخميس لست بقين عن جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ . ودعا يازمان لخمارويه بطرسوس والثغور فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٧ هـ .

وخرج خمارويه الى الشام فى ١٧ ذى القعدة سنة ٢٧٧ هـ ، ومات الموفق سنة ٢٧٨ هـ . ثم توفى المعتمد لعشر بقين من رجب سنة ٢٧٩ هـ . وبويع المعتضد فبعث الى خمارويه بالهدايا مع الحسين بن عبد الله بن منصور الجوهرى وقدم خمارويه من الشام فدخل الفسطاط يوم السبت لست خلون من ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ . وورد كتاب المعتمد على خمارويه لخمس بقين من ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات الى برقة وجعل له الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار ما مضى وثلاثماية ألف دينار عن كل عام للمستقبل [١] . ثم قدم رسول المعتضد فى شهر رمضان سنة ٢٨٠ هـ بالخلع وهى اثنتى عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم يدعى سنيف وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ هـ . وخرج خمارويه الى الشام يوم الخميس لثمان خلون من شعبان سنة ٢٨٢ هـ فأقام بمنية الاصبغ ومنية مطر ثم رحل يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان سنة ٢٨٢ هـ حتى دخل دمشق فكان بها مقتله ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٢٨٢ هـ .

---

(١) الكندى ص ٢٣٩

انحلال الدولة الطولونية وسقوطها :

ثم كانت ولاية أبي العساكر جيشن يوم الأحد لليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٢٨٢ هـ بدمشق فسار الى مصر ، وسيطرت عليه طائفة من الجند وحملوه على أمور كرهتها الأغلبية فتنكروا له وتنكر لهم وخافوا على أنفسهم ، وهرب من عسكره محمد ابن اسحق بن كندج وغيره فى ثلاثمائة رجل من وجوه قواده فلحقوا بالمعتمد . وكان أحمد بن طغان بالثغر فخلع جيشا وكذلك فعل طغج بن جف بدمشق ، ثم وثب جيشن على عمه نصر بن أحمد بن طولون فقتله ، وثار عليه يرمشن وفايق فى أكثر الجيش والموالى فخلعوا وبايعوا هرون بن خمارويه ، وجمع لهم القضاة والفقهاء والقراء فتبرأ اليهم من بيعته .

ثم وليها هرون بن خمارويه ، وثارت طائفة من الجند الذين كرهوا ولاية هارون وكاتبوا ربيعة بن أحمد بن طولون وكان بالاسكندرية ودعوه الى الولاية ووعدوا بالقيام معه وجمع من أهل البحيرة من لبربر ، ونزل بكورة أوسيم ثم عبر النيل فخرج اليه نفر من القواد ونشبت الحرب ولكنه هزم وقتل . وتوفى أمير المؤمنين المعتضد فى ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ وخلفه المكتفى ، وظهر خطر القرامطة فى بلاد الشام سنة ٢٩٠ هـ ، وهزم الجيوش التى أرسلت اليه من مصر والشام . وأخرج المكتفى محمد بن سليمان الكاتب الى حمص فأطاعه بدر الحمامى والى الشام من قبل هارون ، وكتب محمد بن سليمان الى دميانة

وهو بالثغر بأن يسير مراكبه الى سواحل مصر وفلسطين ، وانضم اليه رشيق الوردامى ودخل محمد بن سليمان فلسطين فبايعه ولاة بنى طولون . وبلغت الأخبار مصر فأخرج هارون مضاربه يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٢٩١ هـ ، وبعث وصيف القطرميز فى المراكب البحرية فساروا فى النيل الى تنيس ليمنعوا دميانة ولكنه هزمهم ودخل تنيس ثم مضى الى دمياط وكتب الى أصحاب هارون يدعوهم الى الدخول فى بيعة المكتفى فأبوا فسار فى خليج دمياط والتقوا غداة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٩١ هـ فهزم أنصار هارون ، وسار هارون فنزل العباسة ، ثم نزل دميانة دميرة وتفرق كثيرون من أنصاره عنه فى البر والبحر . وقتله عماه ليلة الأحد ١٩ صفر سنة ٢٩٢ . وتولى شيبان بن أحمد بن طولون وبويع لعشر بقين من صفر سنة ٢٩٢ هـ ودخل الفسطاط ، ولكن أنصار هارون استنكروا قتله . وكتبوا الى أنصار محمد بن سليمان الكاتب وسألوه أخذ الأمان وحرضوه على دخول الفسطاط . وأقبل محمد بن سليمان وبايعه طغج بن جف ثم دخل العباسة وسار الى الفسطاط وتقدم دميانة بمراكبه الى ساحل الفسطاط فنزل به سلخ صفر سنة ٢٩٢ هـ ، وعسكر شيبان بعين شمس ، فأرسل شيبان يطلب الأمان . ودخل محمد بن سليمان الفسطاط مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ وأمر باحراق القطائع فأحرقت ونهب أصحابه الفسطاط مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ ، وولى من قبله على

قنسرين وضم جند بنى طولون وأخرج أولاد ابن طولون من مصر .

فترة السيادة العباسية :

ولى مصر عيسى النوشرى يوم الأحد ١٤ جمادى الأولى سنة ٢٩٢ هـ وفى عهده قامت ثورة ابن الخليج ورجع الى الفسطاط لثمان بقين من المحرم سنة ٢٩٣ هـ . وأقام ابن الخليج بالفسطاط صفر وربيع ، وبلغه مسير أبى شجاع فاتك المعتضدى اليه ومسير دميانة فى المراكب فنزل فاتك بالنويرة . وعسكر ابن الخليج بباب المدينة وقد انهزم أصحاب ابن الخليج ثم دخل الفسطاط يوم الخميس لثلاث خلون من رجب سنة ٢٩٣ هـ ودخل دميانة فى مراكب الى الفسطاط فدخلها هو وأنصار عيسى النوشرى فى ٥ رجب سنة ٢٩٣ هـ ، وحملوا ابن الخليج الى بغداد وهدم الميدان فى رمضان سنة ٢٩٣ هـ .

ثم ولى مصر أبو منصور تكين من قبل المقتدر بالله فى ١١ شوال سنة ٢٩٧ هـ وبدأ يستعد لمقاومة الخطر الفاطمى فاستولى على برقة ثم دخل سرت . ولكن الفاطميين أرسلوا حباسة بن يوسف فوقف لقائد جيش تكين واستماله الى جانبه فعزله تكين وولى غيره . وتقدم حباسة واسترد برقة . وكتب تكين الى صاحب افريقية على لسان أمير المؤمنين المقتدر يدعوه فيه الى الطاعة والتمسك بها .

وسار حباسة بن يوسف فى جيوشه من برقة قاصدا

الاسكندرية فى مائة ألف أو أزيد فدخل الاسكندرية يوم السبت ٨ المحرم سنة ٣٠٢ هـ ، وقدم المدد من الشرق فقدم القاسم بن سيما الى مصر لينضم الى تكين فى صفر ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى وجمع من القواد ، وخرج تكين فى جيوشه الى الجيزة فعسكر بها ونودى بالنفير فى الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة فالتقوا وكثرت القتلى وهزم حباسة . ونستشف مما كتبه الكندى كرهه للفاطميين المتقدمين من الغرب اذ يقول : « وكثرت القتلى منهم وقتلت رجالة حباسة كلهم ، ثم من الله وله الحمد بهزيمتهم ومنح أهل مصر أكتافهم ومضوا على وجوههم هاربين وزادوا من اجتماع الناس ونصر الله ما لم يسمع بمثله » . وأقبل مونس الخادم من العراق فى جيوشه فدخلها يوم الاثنين للنصف من شهر رمضان ، ثم تولى ذكا الأعور من قبل المقتدر يوم السبت ١٢ صفر سنة ٣٠٣ هـ ، وتتبع ذكا أنصار الفاطميين فسجن الكثيرين منهم . ثم وقع الاختلاف بين المظفر بن ذكا بالاسكندرية وبين بربر البحيرة ، وسارت جيوش صاحب افريقية الى لوبية فهرب أهل الاسكندرية منها ودخلتها جيوش صاحب افريقية يوم الجمعة ٨ صفر سنة ٣٠٧ هـ ، وهرب الناس من الفسطاط الى الشام فى البر والبحر ، وثار الجند على ذكا وطالبوه بالعطاء وأمر ذكا ببناء الحصن على الجسر الغربى للجيزة قرب مسجد همدان وحفر خندقا على عسكره وعلى الجيزة .

ثم تولى أبو منصور تكين للمرة الثانية من قبل المقتدر لله

واستعد تكين للحرب ، وقدمت سفن صاحب افريقية قاصدة الاسكندرية عليها سليمان الخادم فاستنجدوا بثمل صاحب مراكب طرسوس فأتى فى مراكبه الى رشيد فلقى سليمان الخادم لعشر بقين من شوال سنة ٣٠٧ هـ ، وتكسرت سفن سليمان وحاقت بهم الهزيمة يوم الاثنين لأربع بقين من شوال سنة ٣٠٧ هـ وحمل الأسرى الى الفسطاط وأمر تكين بتمييز الأسرى فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية وأخرج كتامة وزويلة ثم أمر بقتلهم .

ثم أقبل عبد الرحمن بن صاحب افريقية من الاسكندرية الى الفيوم فنزلها ، ومات ابراهيم بن كيغلغ بالبهنسا ، وملكت البربر جزيرة الأشمونين كلها مع الفيوم واتجه ثمل الخادم فى مراكبه الى الاسكندرية ودخلها ونفى أهلها الى رشيد فى المحرم سنة ٣٠٩ هـ وعاد الى الفسطاط ثم اتجه الى اللاهون . وسارت قوات تكين يوم الخميس ١٨ صفر سنة ٣٠٩ هـ فدخلوا مدينة الفيوم وهزمت قوات صاحب افريقية .

ثم تولى أمور مصر هلال بن بدر من قبل المقتدر فى ٦ ربيع الأول سنة ٣٠٩ هـ وخلفه أحمد بن كيغلغ من قبل المقتدر فى مستهل جمادى الأولى سنة ٣١١ هـ ، ثم تولى أبو منصور تكين للمرة الثالثة من قبل المقتدر يوم الخميس ٣ ذى القعدة سنة ٣١١ هـ ، ومات تكين وهو واليها يوم السبت ١٦ ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ ، وخلفه محمد بن تكين .

(٦)

الدولة الاخشيدية

وظهور محمد بن طغج الاخشيد يشبه الى حد كبير ظهور أحمد بن طولون ليخلص مصر من الفتن الداخلية العنيفة والتهديد الفاطمي الذي لا ينقطع والفوضى الاقتصادية التي خلقها عمال الخراج . ودخل محمد بن طغج مصر دخول الفاتحين فغزاها بالبر والبحر بعد حروب شاملة امتدت من الاسكندرية الى الصعيد . وقد تمكن من اخماد هذه الفتن الداخلية وأنشأ القوات المسلحة وعمل على استقرار الأوضاع الاقتصادية ، وقد تصدى له محمد بن رائق كما تصدى الموفق لأحمد بن طولون من قبل ، وخرج الخليفة العباسي المتقي للقاء الأخشيد كما خرج المعتمد للقاء أحمد بن طولون .. وتوطد نفوذ الاخشيد في بلاد الشام ، ثم تعرضت الدولة بعد وفاة الاخشيد لما تعرضت له الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه وأصبحت نهبا للغزو الفاطمي .

واليكم ما نقله الكندي عن احداث عصر الأخشيديين :

ظهور الأخشيد :

ثم وليها أبو بكر محمد بن طغج من قبل القاهر بالله يوم الأحد ٧ رمضان سنة ٣٢١هـ ، وهو اذ ذاك مقيم بدمشق - ثم

---

(١) الكندي ص ٢٨١ — ٢٩٨ .

وليها أحمد بن كيغلغ ولايته الثانية من قبل الظاهر يوم الخميس ٧ شوال سنة ٣٢١هـ ، وثار الجند لتأخر الأعطيات فى وجه محمد ابن على الماذرائى وانقسم الجند الى أهل الشرق والى المغاربة واجتمعت كل فرقة على قتال الأخرى يوم الثلاثاء ٥ ذى الحجة سنة ٣٢١ هـ ، ثم جرى بينهم الصلح فى الجيزة فى ٨ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، ثم قدم محمد بن تكين وأتت طائفة المغاربة فلقيت عسكر محمد بن تكين ليلة السبت لست خلون من ربيع الآخر سنة ٣٢٢ هـ ، ثم التقوا مرة أخرى فانهزمت المغاربة ، وأتت المغاربة الى الجيزة فنزلوا بولاق وعقد محمد بن تكين لحبكويه على ألف من الجند لحرب المغاربة ، والتقوا يوم السبت لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٢٢هـ ، وانتصر المغاربة ثم عدوا النيل وصاروا الى بلبيس ، وانضم عسكر محمد بن تكين الى أحمد ابن كيغلغ الذى دخل الفسطاط يوم الأحد لست خلون من رجب سنة ٣٢٢ هـ .

ووردت الأخبار بمسير محمد بن طغج الى مصر وأن الراضى بالله عقد له على ولايتها ، فبعث أحمد بن كيغلغ بحبشى بن أحمد من المغاربة الى الفرما ليمنع محمد بن طغج من المسير ، وأقبلت مراكب محمد بن طغج فدخلت تنيس وسارت مقدمته فى البر ودخل صاعدا الى دمياط ، وأراد ابن كيغلغ أن يستسلم فمنعه محمد بن على الماذرائى وبعث عليا بن بدر فى المراكب فلقى قوات ابن طغج بمدينة بوش على بحيرة ترسا ، فهزم على بن بدر فى ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ ، ودخل فى مراكبه الى الفسطاط ثم مضى

منحدرا فى النيل الى الدلتا ، وكف أحمد بن كيغلغ عن القتال وسلم الى محمد بن طغج .

المتاعب الداخلية التى واجهت محمد بن طغج :

ولكن أنصار محمد بن على الماذرائى وأحمد بن كيغلغ لم يطب لهم الأمر ، فقد اعتصم قائد الثوار بالفيوم وأرسل اليه محمد بن طغج من يتصدى له فى ٣ شوال سنة ٣٢٣هـ ، فدخل الى الفيوم فهزم قائد جيش محمد بن طغج وقتل ، فمضى الثوار الى الاسكندرية . وفى نفس الوقت اتجهت قواتهم البحرية الى الفسطاط أول ذى القعدة سنة ٣٢٣ هـ ، وأرسوا بجزيرة الصناعة ثم الى جزيرة راشد فتصدى لهم محمد بن طغج ، ثم ساروا الى الاسكندرية وأزمعوا الرحيل الى برقة ، وكاتبوا صاحب افريقية يستأذنونه فى الدخول فى طاعته ويطلبون أن يبعث اليهم بجيش لفتح مصر فهم أعلم الناس بمسالكها . وبعث اليهم صاحب افريقية بجيش وأمرهم بالمسير الى مصر فأمر محمد بن طغج باخراج العساكر الى الاسكندرية والصعيد فى ربيع الثانى سنة ٣٢٤هـ ، فالتقوا بالمغاربة فى ٥ جمادى الأولى فهزم المغاربة ودخل الحسن بن طغج الاسكندرية [١] .

وورد الكتاب بالزيادة فى اسم الأمير محمد بن طغج فلقب بالأخشيد ودعوا له بذلك على المنبر فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ .

---

(١) الكندى ص ٢٨٥

علاقة الأخشيد بالخلافة :

ووردت الأخبار بمسير محمد بن رائق الى بلاد الشام ففرض محمد بن طغج الفروض وبعث بمراكبه الى الشام وبعث عمران بن فارس الى الشام فى جيش كبير ودخل دمشق وسار عبيد الله بن طغج الى الرملة فسلمت اليه فى ذى القعدة وسار محمد بن طغج الى الشام فى المحرم سنة ٣٢٨ هـ ونزل الفرما وتم الصلح بينه وبين ابن رائق على أن يسلم ابن رائق الرملة ويخرج منها ، وعاد الأخشـــيد الى الفســـطاط يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ .

وأقبل محمد بن رائق الى دمشق فى شعبان سنة ٣٢٨ هـ ، فبعث الاخشيد الجيوش الى الرملة وخرج متوجها الى الشام فالتقى مع محمد بن رائق يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان بالعريش فهزم ابن رائق وتبعه الأخشيد فدخل الرملة ولكن ابن رائق حارب الحسن بن طغج يوم الثلاثاء ١١ ذى القعدة سنة ٣٢٨ هـ ، ثم اتفق ابن رائق والاخشـــيد على الصـــلح وعاد الاخشيد الى الفسطاط وورد الخبر بمقتل محمد بن رائق بالموصل قتله بنو حمدان سنة ٣٣٠ هـ ، فانتهز الاخشيد الفرصة وبعث جيوشـــه الى الشام مستهل رمضان ســـنة ٣٣٠ هـ ، ووردت الأخبار بمسير المتقى لله الى بلاد الشام ومعه بنو حمدان ، فخرج الأخشيد الى الشام فى ٦ رمضان ســـنة ٣٣٢ هـ ، ومضى الى الرقة فلقى المقتدر بالله وأقام فى عسكره ثم عاد الى مصر . ثم خلع المتقى وبويع المستكفى ، فبعث الاخشيد فاتكا وكافور

غلاميه فى الجيوش الى الشام ثم خرج بنفسه يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة ٢٨٣ هـ ، ولقى على بن حمدان بأرض حمص فاقتتلوا ثم سار الى حلب فدخلها وخلع المستكفى ودعى للمطيع يوم الجمعة لثلاث خلون من شوال سنة ٣٣٤ هـ . وتوفى الأمير محمـــد بن طغج بدمشـــق لثمان بقين من ذى الحجـــة سنة ٣٣٤ هـ .

خلفاء الأخشيد :

تولى أبو القاسم أنوجـــور وقدم كافور من الشـــام فى الجيوش وساءت الأمور بين الأمير أنوجور وبين كافور ثم تم الصلح بينهما ثم عادت الأمور الى السوء بينهما مرة أخرى . ثم خلفه أبو الحسن على بن الاخشيد يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، والناظر فى البلاد والمستولى على الدولة كافور والأمر لعلى الى سنة ٣٥٥ هـ ، وتوفى فى ١١ المحرم سنة ٣٥٥ . واستبد كافور بالأمر بعد موت على بن الأخشيد ودعى باسمه على المنابر فى المحرم سنة ٣٥٥ هـ ، ووردت رسل المطيع وخلعه وهداياه وتوفى كافور فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ . وأجمع الرأى بعـــد وفاته على ولاية أبى الفوارس أحمـــد بن على الأخشيد . وقد خرج الحسن بن عبد الله بالرملة وأخذ البيعة لنفسه ، وجاء القائد جوهر الى الفسطاط فخرج الناس للقائه فدخل بعد العصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وخطب للمعز يوم الجمعة على المنابر بمصر وجاء المعـــز من المغرب الى الديار المصرية فدخلها يوم الثلاثاء ٦ رمضان سنة ٣٦٢ هـ [1] .

ثانيا ـ سياسة الخلافة فى حكم مصر

مما تقدم من صفحات مستخلصة مما كتبه الكندى فى كتابه الولاة يمكننا أن نرسم صورة لسياسة الخلافة الاسلامية فى حكم مصر منذ تمام فتحها حتى منتصف القرن الرابع الهجرى .

فقد ظلت الخلافة منذ نجاح الفتح حريصة على تأكيد سلطانها على مصر مستمدة ذلك الحرص من محافظتها على سلطانها وتحقيق النمط المركزى فى الحكم المستند الى القدرة والفعالية الممثلة فى الادارة ذات الكفاية والحزم والرقابة الفعالة وفى الجيش القوى المتماسك الذى يأتمر بأمر الخليفة صاحب السلطان الفعلى ، ومن الحرص الشديد على أن تكتسب هذه البلاد للاسلام ويكفى أن جاءها خليفتان : مروان بن الحكم والمأمون ـــ لتهدئة أحوالها وترتيب أمورها وجاءها ولى عهد قبل أن يصبح خليفة وهو المعتصم .

وظلت هذه السلطة الفعلية والإهتمام المتزايد حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكان ممثلا فى سياسة عصر الراشدين والأمويين والعباسيين حتى بيعة المتوكل على الله .

---

(١) الكندى ـ ص ٢٩٨

وكانت سياسة الخـلافة ووسائل تطبيقها تتأثر بما شهدته الدولة من أحداث طوال الفترة سالفة الذكر كانتقال الأمة من عصر الراشدين الى عصر بنى أمية ثم الى عصر بنى العباس . وهذا الانتقال لم يكن ــ كما رأينا ــ مجرد تغير فى الأسرات الحاكمة انما كان تطورا جذريا فى الحياة الاسلامية ، تطوراً فى تطبيق مبادىء الاســلام وفى الحياة الاقتصادية وفى معــاملة الشعوب الخاضعة وفى نظم الحكم . وكان كل عصر من العصور سالفة الذكر يحمل معه أسلوبا فى حكم البلاد ومعاملة أهلها وادارة دفة الأمور فيها ، وكان لكل عصر أسلوبا يتفق مع طبيعة العصر ويرضى اتجاهاته ويستجيب لأهدافه .

عصر الراشدين (1) :

كانت لعصر الراشدين طبيعته الخاصة التى أملت عليه أسلوبه الخاص وسياسته الخاصة فى حكم البلاد الاسلامية عامة ومصر خاصة . فقد كان العصر استمراراً للعصر النبوى ، وكان عهد الدعوة العالمية الى الاسلام مبلغة لغير العرب وعصر التطبيق العملى لمبادىء الاسلام فى بلاد غير عربية ، وكان هذا التطبيق من حيث نجاحه أو فشله يتوقف عليه مصير الاسلام ، فلو أخطأ الراشدون فى تطبيق المثل الاسلامية لما كتب للاسلام أن ينتشر بالصورة الشاملة التى انتشر بها . لذا كانت للراشدين أساليب سياسية وادارية تخدم أغراضهم وتحقق أهدافهم .

---

(1) الكندى : الولاة ص ٦ ــ ٢٦

كانت لهم سياستهم الادارية التى تتمشى مع أهدافهم من الاشراف الفعلى الدقيق على الأمصار التابعة لهم مع المركزية الشـديدة والرقابة الصارمة لاتخاذ الوسـائل الكفيلة لنجاح الدعوة الى الاسلام وتطبيق مثله . كان هذا التطبيق فى حاجة الى سياسة ادارية محكمة وضعها عمر بن الخطاب لأن الدولة فى عهده بدأت تتكامل نموا وبدأ الاسلام ينتشر ، وكانت الدولة بحاجة الى تقاليد ادارية والى خليفة ذى قدرة على التنظيم ، وكان عمر هو المنظم الحقيقى للدولة الاسلامية .

كانت سياسـته الادارية تسـتهدف الرقابة الصارمة على العمـال والولاة لأنهم كانوا دعاة الى الاسـلام ، فلو أحسن اختيارهم حسنت ادارتهم ونجحت سياستهم ، لذلك اشترط أن يكون الوالى من أكثر الصحابة فضلا وأعمقهم ايمانا ، وكانوا يعزلون أو يستبدلون بغيرهم مخافة أن يؤدى طول بقائهم الى الاعتداد بالنفس أو الاستبداد .

وكانوا فى نفس الوقت يراقبون مراقبة دقيقة فيقيم عليهم العسس ليبلغوا الخليفة عن كل صغيرة وكبيرة ، حتى اذا وجد خروجا عزل الوالى واستبدله بغيره ، وكان الخليفة عمر أحيانا يبعث مندوبا عنه يتنقل فى البلاد ، يسمع شكاوى الناس ويراقب الوالى ، فاذا ظهرت عليه أعراض الثراء سئل من أين له ذلك ؟ ثم يقاسمه بيت المال ماله .

هذا الأسلوب الاداری طبق فی مصر فی عهد ولاية عمرو ابن العاص الأولى ، ويمكننا تتبع مظاهر تلك الرقابة مما كتبه ابن عبد الحكم [1] عن عصر الراشدين فيذكر أن عمرو بن العاص كان يشرك الخليفة فی كل أموره : فی تقدير الجزية وبناء الفسطاط وحصار بابليون والاسكندرية . ويلاحظ أن الرقابة التی أشرنا اليها نفذت فی مصر بكافة تفاصيلها وابن عبد الحكم يشير الى بعث محمـــد بن مسلمة الى مصر ومراقبته لتصرفات عمرو من الناحية المالية ومقاسمة أمواله ، وكان يبلغ الخليفة أولا بأول بما يحدث . ويشير المؤرخ سالف الذكر الى أن الخليفة استدعى عمراً الى المدينة وحاسبه حسابا عسيراً .

وتظهر هذه الرقابة أيضا فی الخطابات المتبادلة بين عمرو والخليفة بشـــأن الأموال المطلوبة من مصر وكيفية تحصـــيلها ووجوه انفاقها .

واستمر هذا الأسلوب حتى بعد وفاة عمر ، فالخليفة عثمان عزل عمرو بن العاص رغم جهوده واستبدل به عبد الله بن سعد ، وظل عثمان على قصر عهده بالخلافة يسير على نفس تلك السياسة من المراقبة الدقيقة . ولو طال العهد بالراشدين لسارت نفس السياسة فی نفس الطريق الذی اختطوه .

لذلك كان عهد الراشدين فی مصر عهد مثالية التطبيق وكان عمرو وعبد الله بن سعد نموذجا طيبا لذلك العصر المجيد .

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ــ ١٢٩

العصر الأموى [1] **:**

ثم كان الانتقال الى العصر الأموى بالصورة التى أشرنا اليها والتطورات التى صاحبت ظهورهم . وقد ترتبت على هذه التطورات أمور هامة ، فغالبية المسلمين لم يرضوا بهذا الوضع وانتشرت الفتن والثورات فى المشرق والمغرب ، وبدأت القبائل ترفع راية العصيان ، واضطر الأمويون أحيانا الى ضرب العرب بعضهم ببعض وتأييد فريق منهم ضد فريق . واستؤنفت الفتوح ، وكان العصر الأموى انتقالا من دور التقشف الى دور الحياة المترفة ، وكثرت النفقات واشتد الطلب على بيت المال ، لذلك كان لزاما أن تتغير الخطوط الرئيسية للسياسة العربية التى أشرنا اليها فى عصر الراشدين .

فالسياسة الادارية لم تعد مركزية مطلقة ، فالخليفة فى دمشق لم يعد يقدر على السيطرة على دولة امتدت أطرافها الى الأندلس غربا وحدود الهند شرقا ، ولايستطيع بمفرده أن يواجه هذه التطورات والفتن والثورات . لذلك أعطى الأمويون الولاة سلطانا كبيراً وكأنهم نواب الخليفة انظر الى سلطات الحجاج بن يوسف فى المشرق وموسى بن نصير فى المغرب . كانت لهم

(١) الكندى : الولاة ص٢٦ ـ ٩٧

سلطات الخليفة نفسه ، يضـــاعفون الضرائب ويجندون الجند ويعينون الولاة .

ومن أجل أن تتاح لهم حرية العمل لم تكن الدولة تعزلهم بسرعة كما كان الحال زمن الراشدين ، انما طالت مدة حكمهم وبعضهم بقى يحكم مصر ثلاث عشرة سنة أو عشرين سنة من أجل أن تستقر أمورهم ويفرغون لتحقيق أهداف الأمويين .

ولى يكن الولاة يختارون من أتقى الناس انما من أكثرهم ولاء لبنى أمية واخلاصا لهم ، اما من أصدقائهم أو أمرائهم أو مواليهم [1] أو عبيدهم .

وكانت الدولة رغم هذا السلطان تراقبهم مراقبة دقيقة عن طريق نظام البريد الذى تحــول فى العصر الأموى الى جهاز للتجسس لمراقبة سيرة الولاة ، فاذا تبين خروجهم عن سياسة الدولة عـــزلوا ، واذا تبين الاخـــلاص مدت لهم فى النفوذ والسلطان .

ومن قبيل الانصاف أن تقرر أن السياسة الادارية للأمويين نجحت نجاحا عظيما وأتاحت للدولة الأموية أن تبقى فى الحكم نحواً من اثنتين وتسعين سنة مع ضـــعف بعض الخلفاء وكثرة الثورات والأزمات . والولاة الأمويون فى مصر كانوا من أكثر الاداريين فى مصر نجاحا وأبعدهم توفيقا .

---

(١) انظر الكندى : ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٠

العصر العباسى [١] :

وكان من الطبيعى أيضاً أن يؤدى انتقال الحكم الى العباسيين على النحو الذى بيناه الى ايجاد سياسة عربية جديدة تنبع من طبيعة ثورتهم وظروف عصرهم وتحقق أهدافهم ، وقد واجه العصر العباسى ظروفا كثيرة قدر لها أن تؤثر فى توجيه سياسته الادارية منها : أن انتقال الدولة العباسية الى العراق كان معناه انتقال مركز الثقل من بلاد الشام مركز الحكومة الأموية وقد حدث هذا الانتقال فى وقت تجدد العدوان البيزنطى ، فقد بدأ البيزنطيون بعد سلسلة من الهزائم ينظمون المقاومة لاسترداد بعض ما فقدوه أو على الأقل وقف التوسع العربى ، فنظموا مقاومة ناجحة فى آسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط وصقلية ، بل شنوا غارات ناجحة على حدود دار الاسلام .

يضاف الى هذا ما كان من أمر المقاومة الأموية التى كانت تتركز فى مصر والشام والمغرب . ولم يكف الأمويون عن الثورات مطالبين بالخلافة [٢] وكانوا يتخذون من مصر وبلاد الشام مركزاً للدعوة سرية ناجحة ومحاولة للقضاء على العباسيين والعودة الى الحكم مرة أخرى ، وكانت ثورات الخوارج تمزق المغرب فى الوقت الذى استقل فيه الأمويون بالأندلس . هذا ولا ننسى تطور الاقليمية فى العصر العباسى وما كان من وجود

---

(١) الكندى : الولاة ص ٩٧ — ١٠١

(٢) الكندى : ص ٤٢٨ — ٤٣٠

وعى اقليمى بين جماعات المسلمين المتطلعين الى مزيد من ميادين العمل السياسى .

وقد وضع العباسيون فعلا ساسة ادارية ناجحة عالجت هـــذه الظروف وحققت أهـــدافهم كاملة . فعملوا على ايجاد وحدة ادارية كبيرة تشمل الشام ومصر وبلاد المغرب وتقرر أن يكون لها كيان ادارى خاص . هذا القسم الغربى كانوا يولون عليه نائبا للخليفة يختار من الأمراء العباســـيين أنفسهم أمثال صالح بن على [1] والفضل بن صـــالح [2] ، وموسى بن عيسى [3] وغيرهم .

وكان نائب الخليفة هذا يقسم وقته بين مصر والشام ، اذا كان بالشام أقام بدمشق ، واذا كان بمصر أقام بالفسطاط أو بالعسكر ، وعندما يكون فى أيهما يولى نائبا من عنده على الناحية الأخرى .

ومما يلاحظ أن نائب الخليفة هذا كان نفوذه يمتد الى بلاد المغرب ولا تزال النقود الاسلامية من العصر العباسى تدل على هذا السلطان الادارى الذى أتيح لنائب الخليفة .

وكان على نائب الخليفة أن يعالج الظروف التى أشرنا اليها ، فيصد عدوان البيزنطيين ويحمى سواحل مصر والشام ويقضى على مؤامرات الأمويين . ويلاحظ أن العباسيين استخدموا بعض

---

(١) الكندى ص ٩٧
(٢) الكندى ص ١٢٩
(٣) الكندى ص ١٣٢

الأساليب التى استخدمها الراشـــدون من كثرة عـــزل الأمراء ونواب الخليفة وتغييرهم بصفة مستمرة ــ باستثناء من قد تولى ولاية العهد ــ حتى لا يؤدى طول بقائهم الى استقلالهم بالقسم الغربى من الدولة .

ولكن حدث منذ عهد المأمون [1] أن تطور هذا النظام الى اقطاعية ضخمة لها سلطانها البعيد ونفوذها الكبير ، ذلك أن نواب الخليفة بدأوا يقيمون فى بغداد بصفة مستمرة لا يعزلون كما كان يحدث انما أصبحت لهم سلطات كأنها سلطات الخلافة ، خطب لهم على المنـــابر وكتبت أسماؤهم على النقود وذكرت أسماؤهم فى الوثائق الرسمية والاتفاقيات السياسية .

ولم يكن هؤلاء النواب يختارون من الأمراء العباسيين انما اختيروا من الموالى أمثال عبد الله بن طاهر الذى كان له سلطانه العظيم . ثم أصبح نواب الخليفة من الأتراك فى عصر المعتصم . ومن أمثلة نفوذ الأتراك فى عهد المعتصم ذلك السلطان الذى حصل عليه اشناس التركى [2] ، اذ كان يتولى حكم بلاد تمتد من المغرب الى الشام وتمتع بسلطات عظيمة كنائب للخليفة وظل هؤلاء الترك يتولون هذا المنصب الرفيع فترة طويلة .

---

(١) الكندى ص ١٤٩ ــ ١٥٤

(٢) الكندى ص ١٩٥

ضعف الخلافة العباسية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجــرى :

كان النصف الأخــير من القرن الثالث الهجــرى حافلا بتطورات هامة ، لا يمكن أن تفهم الأحــداث فى مصر الا فى ضوئها ، وأهم هذه التطورات أن الأمصار الاسلامية شهدت خروجا على الحكم المركزى للخلافة ورأت عمالا يورثون الملك أبناءهم ويظفرون باستقلال ذاتى للبلاد التى يظهرون فيها .

وبعض المؤرخين يرى فى هــذه الحركات انحلالا للدولة الاســلامية وبداية للــكارثة التى قضــت عــلى وحــدة المسلمين ويردون ذلك الى ضــعف السلطة المركزية من ناحية ونمو سلطات الولاة على حساب الخلافة من جهة أخرى .

والحقيقة أن هذه التطورات لم تكن تفككا للدولة الاسلامية فقد دان هــؤلاء الأمراء بالطاعة للخــلافة واعترفوا بنفوذها الاسمى ، وكانت الخلافة تتدخل فى بعض الأحيان تدخلا مثمراً . وكان العالم الاسلامى فى الحقيقة تجمعه وحدة الخضوع الأسمى لخليفة المسلمين .

ومن الاسراف أن نرد هذه الظاهرة الى ضــعف الخلافة فحسب ، فقد ظهرت بعض المحاولات الاستقلالية فى فجر الدولة العباسية ، انما هذه الحركات فى الحقيقة تعبــير عن القوميــة والاقليمية ، ذلك أن الاسلام حينما انتشر قهر قوميــات لها عراقتها فى التاريخ والحضارة ، هذه القوميات بعــد أن أسلم

أصحابها لم يكن من المعقول أن يطول خضوعهم ، انما وجدت هذه القوميات متنفسا عنها فى هذه الحركات الاستقلالية التى امتلأ بها تاريخ هذه الفترة .

وهـذه الحركات الاستقلالية صورة للصراع الاقليمى بين الاقليمية والمركزية فالدولة الاسلامية دخلت فى طاعتها أقاليم متباينة جنسا ولغة وطبيعـة ، وهى وان كانت قد استكانت للسلطة المركزية وقتا فانها سرعان ما فرضت نفسها على التاريخ مختفية وراء هذه الحركات الاستقلالية ومنتهزة ضعف الخلافة أو انشغالها .

وهناك حقيقة هامة وهى أن هذه التطورات كانت انتصارا حقيقيا للدعوة الاسلامية ولروح الاسلام ، فالاسلام لم يفرض امتيازا للعرب على حساب غـيرهم من المسلمين فتحرر هذه القوميات من نعم الاسلام . هذا ومؤرخو الحضارة يرون فى الحركات الاستقلالية طليعة للتنافس بين البيئات الاسلامية فى الانتاج الثقافى ، هذا التنافس الذى مهد لعصر النهضة الاسلامية الشـاملة .

وتميزت هذه الفترة أيضا بأمور معينة كان لها أثرها الواضح فى تاريخ مصر منـذ القرن الثالث فصاعدا ، منهـا ما تناقله المؤرخون المعاصرون من عدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو القتـل أو التعذيب أو العـزل أو على سـلطانهم بالسلب والتضـييق . كما أن لقب الخلافة فقـد ما كان له من هيبـة وقداسة . ومن الغريب أن بعض الكتاب ردوا ذلك الى ضعف

الخلفاء وانصرافهم الى اللهو ، لا ننكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين استسلموا للأقدار ، ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من القوة . الحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف نظام الخلافة نفسه .

وأسباب ضعف النظام ترجع الى الانقسام الذى وضح فى صفوف البيت العباسى الحاكم منذ البداية الأولى . ظهرت علامات هذا الانقسام فى عهد السفاح ، ثم اشتدت فى عهد المأمون ومن تبعه . وفى نفس الوقت الذى كان فيه البيت العباسى يفقد هذه الوحدة كانت العصبية العربية تضعف بسبب تفرق العرب فى البلاد واختلاط دمائهم . وكان العباسيون أنفسهم قد عملوا على اهمال هذه العصبية [1] واضعاف ما بقى لها من نفوذ ، ويظهر أن الخلافة بعد فقدها تأييد العرب قد تخبطت سياستها ، ودفعها الخوف على النفوذ الى محالفة عصبية جديدة قدر لها أن تقضى على ما بقى للخلافة من سلطة فقد استعانوا بالترك فاستبدوا بهم واغتالوا سلطانهم . وخضع سلائل العباسيين وذلوا لهؤلاء الأتراك يستبدون بهم ويتحكمون فيهم . ولم يقنع الأتراك بالسيطرة على الخلافة انما امتد سلطانهم الى الوظائف الادارية وفى مقدمتها منصب الوزارة . وأصبح

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٥

تعيين الوزراء يتم عن طريقهم ، بل تجاوز نفوذهم حاضرة الخلافة فكان الولاة يختارون اما من طبقتهم أو من المقربين اليهم [1] .

لم يكن الأمر اذن ضعف خلفاء بقدر ما كان ضعف النظام العباسى نفسه فقد شهد هذا العصر خلفاء لو كان زمانهم تقدم بهم لما كانوا أقل من المنصور أو الرشيد أو المأمون .

هذه الخلافة الضعيفة شغلت بمشاكل اقتصـادية اجتماعية عميقة الجذور قدر لها أن تشل حركتها وتشغل عليها تفكيرها . بل كانت هذه المشاكل من وراء الفتن والثورات التى ظهرت فى ذلك العصر وأخصها الثورة المشهورة بثورة الزنج [2] التى قدر لها أن تلعب دورا هاما فى تاريخ مصر . وهى تشبه من وجوه كثيرة ثورة العبيد فى التاريخ الرومانى . والمجتمع الاسلامى كما نعلم يبيح الرق بمقدار الا أن العبيد فى الحياة الاسـلامية لم يكونوا مثل اخوانهم من قبل فى العصر الرومانى حيث كانوا عماد الانتاج ، انما اعتمد الانتاج الاسـلامى فى الغالب على الفلاحين الأحرار والصناع . وكان العبيد يستخدمون فى الأعمال المنزلية أو فى الجيش .

ولكن العصر العباسى غير من هذا الوضع واستخدم العبيد فى الأعمال اليدوية فى عدد من المشاريع الواسعة فى المنـاجم وتجفيف المستنقعات . وعمدت الرأسمالية الى الاكثار من العبيد

---

(١) الكندى ص ٢٠٢ – ٢١٢

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٥

واستخدامهم فى الزراعة على الخصوص ، وكانوا يحشرون فى مساكن حقيرة جماعات . وكان كبار الملاك يقتنون الآلاف منهم واستخدموهم فى سهول البصرة ، فى تجفيف المستنقعات وكانوا يعملون جماعات يتراوح أفراد الجماعة منهـا بين الخمسماية والألف ، وكانت أحوالهم سيئة الى أبعد الحدود . وقد اتخذ الدعاة هؤلاء العبيد تربة صالحة لنشر دعوتهم . فادعى صاحب الزنج أنه من نسل زيد بن على ، وأعلن العصـيان وانتشرت دعوته وانضم اليه العبيد واشتعلت ثورة الزنج المشهورة . وقد أحرز الزنج الثائرون سلسلة انتصارات سريعة وهزموا جيوش الدولة الواحد فى أثر الآخر ، وأظهروا عجز الأتراك فقد هاجموا البصرة واتخذوها عاصـمة لهم ، وهزمت جيوش الخلافة سنة ٢٥٧ هـ ، وسيطر الزنج على بقاع واسعة فى جنـوب العراق وايران وهاجموا البطيحة سنة ٢٦٢ هـ ، ودخلوا النعمانية سنة ٢٦٥ هـ والأهواز بعد ذلك بسنة [١] ، وبدت هذه الثورة السوداء كأنها كارثة محققة تريد القضاء على ما بقى للخلافة من نفوذ .

ضعفت الخلافة على هذا النحو وانهار سلطانها وتركت فراغا سياسيا كبيرا فى مصر الاسلامية . وكان لا بد أن يملأ الفراغ ليصون مصر ويدافع عن حدودها وينطلق بها نحـو التقدم . فكانت امارة بنى طولون فى مصر وبنى الأخشـيد التجـربة الجديدة التى ملأت ذلك الفراغ ، وكانت حلقة جديدة فى تاريخ

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٥٦١

العلاقات بين مصر والخلافة . وظهر طراز من الولاة لم تألفهم الحياة السياسية من قبل يستبدون بالسلطات الداخلية فى البلاد وتطلق أيديهم فى شئونها مكتفين بالدعاء للخليفة بعد الخطبة أو نقش أسمائهم على السكة أو الطراز ويتوارثون الحكم والسلطان أحيانا باعتراف الخلافة ورضاها وأحيانا رغم معارضتها واظهار سخطها ، وينشئون القوات المسلحة فى اقليمهم تستمد ارادتها منهم وتدين لهم بالولاء والطاعة وتشهر السلاح أحيانا فى وجه قوات الخلافة نفسها دفاعا عن مكاسب الأمراء وسلطانهم ويقومون باصلاحات مالية واقتصادية فتنمو مواردهم وتعظم ثرواتهم وينشئون العواصم والقصور ويعيشون عيشة مترفة ناعمة ، ويضطلعون بمهمة الجهاد التى تخلت عنها الخلافة التى أصابها الوهن والضعف .

وقد حدث أن استردت الخلافة سلطانها الى حين عام ٢٩٢ هـ وعادت الى حكم مصر حكما مباشرا على النمط القديم فى فترة صحوتها وقوتها الموقوتة . لكن الظاهرة عادت تلح مرة أخرى ممثلة فى الأخشيديين فى مصر ، واليكم نماذج من السلطات الكبيرة التى حازها الطولونيون والأخشيديون لندرك كيف تغيرت ظروف العلاقات بين الخلافة ومصر منذ عام ٢٥٤ هـ حتى أستطاع الفاطميون أن يفتحوا البلاد .

الطولونيون :

انه من الصعب أن نعتقد أن أحمد بن طولون جاء الى مصر ليسير فى نفس طريق الوكلاء السابقين ينفذ أمر الوالى الشرعى

ويبعث اليه بحاجته من المال . بل نعتقد أن ابن طولون كانت آماله أبعد من ذلك ، وأنه كان يفكر فى استقلال لا يخرج به عن ولائه للخليفة العباسى ولا يحقق بالثورة والاغتصاب انما يحقق فى نطاق الخلافة وبرضاها اذا استطاع . وعظماء الرجال آمالهم أبعد من تفكير معاصريهم وهم لا يكشفون عن خطتهم دفعة واحدة انما يكشف عنها بالتدريج ، فماهى أعمال ابن طولون فى مصر التى ميزته عن الولاة السابقين ؟

نعتقد أن مشروعات ابن طولون الاستقلالية لم تظهر فجأة انما فى صورة خطوات متتابعة تتجه نحو تحقيق الاستقلال كما يفهمه الناس اذ ذاك . كانت خطوته الأولى أن يشمل سلطانه مصر كلها وأن يسيطر على مرافقها سيطرة كاملة ، فقد كان نفوذه لا يتجاوز مدينة الفسطاط . وتحقق له ما أراد وتولى أمور مصر رسميا . ويمكننا أن نعتبر سنة ٢٥٧/٢٥٨ هـ [1] سنة حاسمة فى حياته فقد كانت بداية اطلاق يده فى البلاد وسيطرته على الاسكندرية وبرقة ، وقدم له حكام الكوز (المديريات) مظاهر الطاعة والخضوع ، وتصرف عندئذ كأنه الوالى الشرعى للبلاد وبدأ فى انشاء القطائع وتأسيس المسجد الجامع وسيطر على البريد فأصبح خاضعا له وضمن ألا تتسرب أخباره الى دار الخلافة الا بالقدر الذى يريد .

واستطاع بوسائله الخاصة أن يحصل من الخليفة المهتدى

---

(1) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٩

على قرار بعزل ابن المدبر عامل الخراج وابعـاده خارج مصر ليتولى خراج فلسطين ودمشق والأردن . فأطلقت يده فى الأمور المالية ، فولى على الخراج رجالا يدينون له بالولاء . ثم تصدى للفتن الداخلية جميعها فقضى عليها واستقامت له الجبهة الداخلية واعترف بزعامته وعرفت الخلافة مكانته . ثم كان انشاء الجيش الذى لا يعتمد على الخلافة انما يدين له بالولاء ويكون عونه فى تحقيق مشروعاته والدفاع عن الاستقلال الذى أراد تحقيقـه وأصبحت له قوات نظامية كبيرة العدد تخضع له مباشرة .

ولكى ينمى ثروة البلاد قام باصلاحات اقتصادية كثيرة بعد طرد ابن المدبر ، وسيطر على ديوان الخراج الذى أصبح خاضعا له خضوعا تاما ، ثم ملأ ديوان الخراج بموظفين يدينون له بالولاء وفرض رقابة صارمة عليهم ووضع حدا لنهبهم . كما أصـلح العملة وسك الدينار الطولونى واعتمد على الخراج باعتباره المورد الضريبى الأول ، وارتفع خراج مصر فى عهده فبلغ نحوا من ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار [١] ، كما عمد الى مضـاعفة الانتاج فى ميادين الانتاج كلها الزراعى والصـناعى والتجارى . وجمع بفضل هذه الاصلاحات أموالا ضخمة كانت عونه فى الخطوات التى خطاها فى سـبيل الاستقلال ومكنته من شراء العبيـد والسلاح والاكثار من الجند وبناء القطـائع والقصر والميدان والمسجد الجامع والقيام بكافة الاصلاحات العمـرانية ومتابعة الجهـاد .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٢

كان ابن طولون يتصور أن الاستقلال يقــوم على أركان ثلاثة : أن يبقى فى مصر لا تعزله قوة ولا يتدخل أحد فى شأنه ولو أدى الأمر الى استخدام القــوات المسلحة ، وأن يتخذ مصر قاعدة ليلعب الدور الأول فى العــالم الاسلامى ، وأن تكون له جميع الصــفات الرســمية ، وأن تــكون امارة مصر وراثيــة فى أولاده . وفى ســبيل تحقيق ذلك تصدى لأكبر قوة فى الدولة العباسية قوة الموفق أخى الخليفة الذى ظهر على مسرح الخلافة العباسية فى وقت تهددتها الأزمات العنيفة كثورة الزنج . وقد اعتمد عليه الخليفة فى مواجهة هذه الأزمات ومنحه سلطات كبرى ، وولاه على القسم الشرقى من الدولة ويشــمل الكوفة والحجاز واليمن وبغــداد وواسط والبصرة والأهواز . وسرعان ما أصبحت له الكلمة الأولى فى الدولة ، وأطلقت يده فى شئون البلاد وقد تمكن الموفق من هذا السلطان الواسع فى الوقت الذى توطدت فيه أقدام ابن طولون فى مصر وسرعان ما بدأ الصراع بينهما .

ولم يترك ابن طولون سلاحا الا واستخدمه دفاعا عن نفسه فقد طلع على العالم الاسلامى بأمر جديد كان له وقع عظيم فى الأوساط المعاصرة ، فقد جعل نفسه مدافعا عن الخلافة بالسيف وقوة السلاح ، وكتب فى سنة ٢٦٨ هـ الى الخليفة المعتمد كتابا هاما ورد فيه : « وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان أنجاد وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب الى مصر فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخافه

عليه منه فى كل لحظة ... » [1] . ويبدو أن الخليفة استجاب لهذه الدعوة الجريئة وتظاهر بالخروج للصيد حتى وصل الى الرقة حيث كان فى انتظاره ضابطان من رجال ابن طولون ، وكان من الممكن أن يدخل الموصل ومنها الى بلاد الشام لولا أن انكشف أمره وأعيد الى العاصمة مقهورا . ولو نجح ابن طولون فى ايواء الخليفة لتحركت قواته الرابضة على حدود العراق ولدخلت دفاعا عن حق الخلافة . وتصرف ابن طولون هذا يعطينا صورة للوزن الذى أصبح له فى العالم الاسلامى وهو تصرف فيه تحد سافر لسلطان الموفق .

بل اتخذ أمرا أشد غرابة فقد عمل على خلع الموفق من ولاية العهد ، ومن أجل ذلك عقد مؤتمر دمشق وحضره عدد من القضاة وقد أصدروا قرارا بخلع الموفق من ولاية العهد استنادا الى أن الموفق نقض البيعة بعدوانه على الخليفة وأنه خرج على السلطات التى أعطيت لولى العهد وأنه غير أهل لامامة المسلمين فقد أعطى نفسه حق خلع ولى العهد واتخذ لقبا جديدا فى صيغة كتاب الخلع « أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين » [2] . ثم أمر بلعن الموفق على المنابر واسقاط اسمه من الدعوة ومحو اسمه من الطرز . واتسع نفوذ ابن طولون بصورة لم يألفها تاريخ مصر من قبل ، فقد امتد نفوذه الى برقة وبلاد الشام ومنطقة الثغور ، وجاهد البيزنطيين أصدق جهاد .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٨٠

(٢) البلوى ص ٢٩٦

ثم بايع الجند ابنه خمارويه أميرا من بعــده ، ولما استقام لخمارويه أمر الجبهة الداخلية كان عليه أن يدافع عن أملاكه فى بلاد الشام وأن يستأنف النضال بين بغداد ومصر وأن يقف للمؤامرات . وكان الموفق قد استراح من حروب الزنج وبدأ يتفرغ لمصر ليأخذ بثأره القــديم . ولكن خمارويه قضى على أعوانه الذين كانوا قد اجتمعوا منذ عامين للقضاء عليه وأقر السلام على الحدود الشرقية وامتد نفوذه من برقة حتى الفرات ومن آسيا الصغرى حتى بلاد النوبة . وبدا الطولونيون قوة رهيبة يحسب لها كل حساب ، وكانت نتيجة هذه الانتصارات أن ارتفع قدر خمارويه فى أعين المعاصرين ورأوا أنه يملأ مكان أبيه فى قوة وجدارة واذا بالموفق ينشد السلام بعد أن أعيته السبل . وكان خمارويه هو البادىء بطلب الصلح والتفاهم ، وكتب الى الموفق فى طلب الصلح . واجتمعت رغبــة المعتمد والموفق على مباركة هذه الخطوة والترحيب بها ، وبعثوا الى خمارويه كتابا كتبوه بأيديهم تعظيما له [1] . وفى هذا الكتاب أعطى خمارويه الحق فى أن يحكم البــلاد مدة ثلاثين سنة [2] لا يهدد بعزل أو تدخل فى شئونه كما أعطى حق التوريث ، فكان هذا الاعتراف أمرا جديدا فى تاريخ العلاقات بين الخلافة وبين مصر ، واستوفت الامارة الشكل وأصبحت مصر دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمى والفعلى .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ٣ ص ٥١

(٢) الكندى : الولاة ص ٢٣٦

ثم توفى المعتمد وبويع المعتضد بالخلافة سنة ٢٧٨ هـ ، وأرسل خمارويه رسله الى الخليفة الجديد يحملون التهنئة بالخلافة والهدايا التى تتمثل فيها عظمة الطولونيين ، وقد صدرت معاهدة جديدة لا تختلف كثيراً عن المعاهدة الأولى من حيث الهدف والروح اذ تضمنت الموافقة على ولايته هو وأولاده من بعده ثلاثين سنة وجعلت اليه الصلاة والخراج ، فكأن المعاهدة ألغت آخر قيد على استقلال مصر الداخلى . ونعتقد أن أحمد ابن طولون لم يكن له حق توليته العمال فى البلاد دون رأى الخليفة وموافقته ، ويبدو أن هذه المعاهدة أعطت خمارويه فوق ذلك حق تعيين القضاة فقد كان القضاء من الأمور الخاصة بالخلافة ، وكان الخليفة هو الذى يعين القضاة[1] .

ثم حدث تطور هام فى العلاقات بين الخلافة والطولونية فقد تمت المصاهرة بين البيتين ، ويبدو مما رواه المؤرخون أن العرض جاء من جانب خمارويه ولعله كان من الأسلحة التى استغلها لاغراء الخليفة بتجديد العقد ، ولم يكن من المعقول أن يرفض الخليفة هذا العرض الذى جاء من أقوى الأمراء المعاصرين وأكثرهم غنى . وكان خروج الاتفاقية الى حيز التنفيذ معناه وفاء مصر بما وعدت به من التزامات مالية ثم وفاء أمير مصر بالزواج الموعود ، فقد طمع الخليفة نفسه فى هذه المصاهرة ورحب بها . والدوافع التى حدت كلا الطرفين واضحة ، فخمارويه كان يريد أن يربط بين البيتين بروابط مودة باقية وأن

---

(١) أبو المحاسن : جـ ٣ ص ٥١

يكسب البيت الطولونى مجدا ونفوذا . أما المعتضد الطامع فى المال فقد طمع فى المزيد منه ، فقد كان متوقعا أن تجهز العروس بما يتفق مع الخلافة وهيبتهـا ومع مصر وثروتها العظيمة وأن تتدفق الهبات والهدايا الى خزانة الخلافة . ولم يتم الزواج الا بعد توقيع المعاهدة بنحو سنتين أو ثلاث سنين . ويكفى خمارويه فخرا رغم ما أنفق أنه تطلع الى ما لم يتطلع اليـه كثيرون من الأمراء المعاصرين وأنه سعى الى الاتفاق مع الخلافة وأعطى دولته صفتها الشرعية وضمن لأولاده حقا فى الوراثة ، وصاهر الخليفة .

ثم تمكنت الخلافة التى صحت صـحوة موقوتة فى عهـد المعتضد والمكتفى أن تقضى على الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ وأن تعيد مصر الى حكمها المباشر مرة أخرى . وظلت مصر تمزقها الثورات الداخلية مثل ثورة ابن الخليج ، وتهددها الغزوات الفاطمية من الغـرب وسرعان ما عادت الخلافة الى ضـعفها التقليدى وشعرت بالحاجة الى شغل هذا الفراغ مرة أخرى ، ومن هنا نشأت الامارة الأخشيدية لتملأ هذا الفراغ حتى فتح الفاطميون مصر .

الأخشيديون :

بدأ أحمد بن طولون حياته السياسية فى بلاد الشام ، وبدأ محمد بن طغج حياته السياسية فى مصر ، فقد اتجه اليها ليعمل فى خدمة أحد ولاتها الأتراك واسمه تكين ، وكأن العناية بعثت به فى الوقت المناسب ، فقد جاء مصر وشعور المسلمين معبـأ بالسخط والثورة على العباسيين والقوات الفاطمية تطرق أبواب مصر من الغرب .

واستطاع الأخشيد أن يكون عدة والى مصر فى صد الحملات الفاطمية على البلاد ، وقدر الوالى التركى ما أظهره هذا الشاب من تفوذ فولاه على منطقة عمان بفلسطين . وكان عليه أن يكسب عطف الخليفة ورضاه بعد أن كسب عطف العناصر التركية فى مصر والشام . فقد أغار الأعراب على قافلة الحجاج المارين ببلاد الشام وكان فيهم قوم من أعيان العراق ومعهم جارية لأم الخليفة ، واستطاع الأخشيد أن يهزم قطاع الطرق وأن ينقذ الحجاج ومعهم جارية الخليفة . لكن ابن طغج كان ينقصه رضا المرتزقة أصحاب السلطة الفعلية فى عاصمة العباسيين وقد تم له ما أراد حين نجح فى صد الخطر الفاطمى عن مصر متعاونا مع عاملها التركى ومع أمير الأمراء الذى جاء بنفسه الى هذه البلاد ليشرف على الاستعدادات الكفيلة بصد هذا الخطر . وعاد أمير الأمراء الى بغداد راضيا عن الأخشيد فقلد ولاية الرملة فى فلسطين سنة ٣١٦ هـ [١] ، وولاية دمشق سنة ٣١٩ . ولم يكن الأخشيد ليقنع بولاية الشام انما كان يرنو الى ولاية أغنى وأعظم وهى ولاية مصر معتمدا على الجند والأموال التى استكثر منها فى بلاد الشام . فلننظر كيف أصبح الأخشيد واليا على مصر وكيف اتجه نحو الاستقلال بها .

تقلد محمد بن طغج ولاية مصر ليس على سبيل الاقطاع ، انما بطريقة مختلفة ، فقد أصبح تقليد الولاية سلعة تباع لأكثر الناس دفعا للمال وأكثرهم تقربا من ذوى الحظوة . واستطاع

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٦٣

الأخشيد بنفوذه فى بلاد الشام وبالتوسل لأصحاب النفوذ ، ومعتمدا على حاجة الدولة العباسية الى رجل قوى يدفع الخطر الفاطمى ويسد الفراغ فى مصر الذى تركه سقوط الامارة الطولونية وصدر مرسوم فى سنة ٣٢١ بتولية الأخشيد على مصر [١] ، ولكن مرسوم الخليفة لا يغنى ولا يفيد فقد يصدر المرسوم اليوم وقد يلغى بعد ذلك بسبب تدخل حريم القصر أو الضباط الترك . وكان تنفيذ المرسوم يتطلب أن يكون الوالى صاحب قوة ونفوذ وأن يكون مرضيا عنه من أصحاب النفوذ ببغداد . وقد تحقق للاخشيد هذا كله بعد مصاهرة الفضل ابن جعفر صاحب النفوذ فى بغداد [٢] ، وسلوكه نفس السبيل الذى سلكه ابن طولون فى موقفه من ابن المدبر صاحب الخراج وصاحب النفوذ الفعلى فى البلاد ، فقد اصطدم الأخشيد بنفوذ مماثل ، فقد كان عمال الخراج فى مصر وقت مجىء الأخشيد قد توارثوا هذا المنصب منذسنة ٢٧٢ هـ فقد تولاه الماذرائيون [٣] وبقى فى بيتهم نحوا من خمسين سنة فكأنهم جعلوا للخراج دولة فى مصر مستقلة بشئونها المالية .

واضطر الأخشيد الى الاستعانة بالقوات المسلحه للقضاء على عامل الخراج فى مصر وتقدم نحو البلاد برا وبحرا ، تقدم الأسطول من بلاد الشام واقتحم النيل من دمياط حتى الفسطاط

(١) الكندى : ص ٢٨٤

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١١

(٣) سيدة الكاشف : الأخشيديون ص ٣٧ — ٤٥

ثم تقدمت القوات البحرية من فلسطين فهزم عامل الخراج وقضى عليه .

وكان على الأخشيد أن يعزز هذه الانتصارات جميعها بأن يدافع عن مصر ويحميها ويظهر فى العالم الاسلامى بمظهر المدافع عن أهل السنة وعقائدهم وتقاليدهم ، فأظهر التفوق فى الدفاع عن مصر وصد هجوم الفاطميين مرة أخـرى . وكان نجاحه فى حماية الخلافة العباسية وحماية المذهب السنى له صـدى عميق فى الرأى العام المعاصر ، ولكى يؤمن تلك المكانة التى سما اليها ويعزز سياسته الداخلية والخارجية بالقوة التى تسنده أنشأ الجيش القوى وسار فى نفس السبيل الذى سلكه ابن طولون من قبل ، كما عمل على اكتساب ود المصريين أهل البلاد والفوز بولاء أهل الذمة الذين كانوا لا يزالون فى ذلك العهد قوة يحسب لها حساب .

واذا كان ابن طولون قد تحدى أعظم قوة فى عصره فقد تحدى الأخشيد أمير الأمراء محمد بن رائق الذى اتسع نفوذه فتولى امرة الجيش وخراج جميع البلاد الاسلامية [1] وخطب له على المنابر فى الشرق والغرب ، وقد هدد الأخشيد فلم يتردد فى أن يشتبك معه فى البر والبحر حتى أصبح القوة الكبرى فى الحياة الاسلامية حتى ان الخليفة الذى عبث بمصـيره الترك وأفزعه عدوان أمير الأمراء وضعف الجند وفتنهم المتصلة اضطر الى الاستنجاد بالأخشيد والكتابة اليه ليقابله فى بلاد الشام وتم

(١) سيدة الكاشف : الأخشيديون ص ٧٩

اللقاء ، وأظهر الأخشيد الولاء له وكان يود أن يعتصم الخليفة بمصر ، لكن الأخشيد استطاع أن يحقق الاستقلال المنشود بعد أن دانت له قوى الدولة كلها ، فقد هزم أمير الأمراء وأصبح الباب أمامه مفتـوحا ليحقق ما يشاء ، وقد ظفـر من الخليفة بمعاهدة أشبه بالتى ظفر بها خمارويه ، اذ اعترف الخليفة بولاية مصر وراثية فى أولاده وأقره على البلاد التى استولى عليها ، بل مضى الأخشيد الى أبعد من هـذا فقد استطاع أن يأخذ البيعة من قواده لابنه من بعده ، وحصل من الخليفة على موافقته على هذه البيعة وأصبح يدعو للخليفة ثم لنفسه ثم لولده من بعده . وامتد نفوذ الأخشيد الى الحرمين ، وتقليد الخليفة ولاية الحرمين للأخشيد يشهد بالسلطان الواسع الذى ناله محمد بن طغج .

وارتفع شأن مصر فى عهده فقد استطاع أن يتغلب على منافسيه بأن وطد علاقته بالخلافة وساد الأمن والطمأنينة وجعل لبلاطه من الرسوم والتقاليد مثلما كان للبلاط الطولونى ، فقد كثرت أموال الأخشيد بصورة لم تتوفر لسلفه من قبل ، ومؤرخو عصره يتحدثون عن الثروة الطائلة التى تركها وينسبون ذلك الى نجل الأخشيد وعدم ميله الى الاسراف غير أنها يجب أن تنسب الى رخاء العصر وازدياد الدخل القومى وسياسة الاصلاح الاقتصادى التى سار عليها .

من هذا يتبين كيف أن العصر الطولونى والأخشيدى قد أتى بجديد فى العلاقة بين مصر وبين الخلافة .

ثالثا ـ نظم القضاء في مصر

أما عن القضاء فى مصر من الفتح العـربى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى وتقاليده ونظمه وعلاقة القضاء بالوالى وطـريقة تولى القضـاة وأسـلوبهم فى الجلوس وأعوانهم واختصاصاتهم وطريقتهم فى اصـدار الأحكام وخروجهم للغزو ومشاركتهم فى الأحداث السياسية ، فقد استطعت أن أجمع من كتاب القضاة بعض النصوص الهامة التى تلقى الضوء على هذا الجانب الهام من تاريخ الاسـلام فى مصر وآثرت أن أتمسك بأسلوب المؤرخ بقدر الامكان ، واليكم بعض اللمحات من تاريخ القضاء فى مصر مستنبطة من كتاب الكندى :

بعد أن انتهى العرب من فتح مصر واستقامت لهم أمورها عين الخليفة عمر أول قاض فى تاريخ مصر الاسلامية ، فقد ولى قيس بن أبى العاص بن قيس [1] . وقد جرت التقاليد فى عصر الراشدين على أن يكون اختيار القضاة من اختصاص الخلفاء أنفسهم ، فقد ولى بعد قيس قاضيا آخر هو عثمان بن قيس وقد مات بعد مقتـل عثمان . وظلت مصر بدون قاض حتى استقام الأمر لمعاوية بن أبى سفيان فولى القضاء سليم بن عتر التجيبى [2] .

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٠٠

(٢) الكندى : القضاة ص ٣٠٢

على أن اختيار القضاة بعد معاوية ترك لولاة مصر هم الذين اختاروا من تولى القضاء فى البلاد وكان الخليفة يصدق على هذا الاختيار ، فجميع القضاة الذين ترجم لهم الكندى بعد عصر معاوية كلهم ولا هم ولاة مصر المتعاقبين .

وقد استمر الأمر على هذا الحال بعد أن انتقلت مصر للنفوذ العباسى ، فقد ظل الولاة العباسيون يمارسون هذا الحق الى أن تدخل الخلفاء العباسيون بأنفسهم فى اختيار قضاة مصر . فقد ولى أبو جعفر المنصور القاضى عبد الله بن لهيعة الحضرمى فى مستهل سنة ١٥٥ هـ ، ويتحدث الكندى [1] عن هذه المناسبة بقوله : « ان وفد مصر كانوا بالعراق فدخلوا على أبى جعفر المنصور يوما فقال لهم : أعظم الله أجركم فى قاضيكم أبو خزيمة ، ثم التفت الى ربيع فقال : انتخبنا لأهل مصر قاضيا ، قال عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج ماذا أردت بنا يا أمير المؤمنين ؟ أردت تشهرنا فى الأمصار بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرنا » .

ويبدو أن العباسيين فى عهد المهدى بدأوا يختارون القضاء رجالا من أهل الكوفة المتمرسين بفقه أبى حنيفة ، فقد اختار المهدى اسماعيل بن اليسع الكندى [2] ، « وهو أول من ولى مصر يقول أبى حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفونه » . غير أن الولاة العباسيين عادوا الى ممارستهم حقهم فى اختيار

---

(١) الكندى القضاة ص ٣٦٨

(٢) الكندى القضاة ص ٣٧١

الولاة فالمطلب بن عبد الله والى مصر سنة ١٩٨ هـ ، ولى القضاء الفضل بن غانم الخـزاعى ، ثم عاد الخلفاء الى تولية القضاة بأنفسهم مرة أخرى ، فقد ولى هارون بن عبد الله القضاء من قبل المأمون وقدم مصر يوم الأحد لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ٢١٧ هـ ، حتى الفترة التى توقف عندها أبو عمر الكندى .

واذا أردنا أن نتحدث عن علاقة القاضى بالوالى فانها قامت على أساس التبعية دون شك ما دام الوالى قد وكل اليه الأمر فى الاختيار ، ولم تكن التبعية قاصرة على مجرد التعيين بل امتدت الى نواح أخرى . فقد كان الوالى هو الكفيل بتنفيذ أحكام القضاة وكان فى بعض الأحيان يتدخل فى بعض الأحكام فلا ينفذها أو يعطلها ، ومن أمثلة ذلك التدخل ما رواه الكندى [١] من أن رجلا من الجند قذف رجلا فخاصمه الى القاضى خير بن نعيم وثبت عليه شاهداً واحداً وأمر بحبس الجندى الى أن يثبت الرجل شاهداً آخر ، فأرسل الوالى أبو عون فأخرج الجندى من الحبس فاعتزل خير وجلس فى بيته ، وترك الحكم فأرسل اليه أبو عون فقال : لا حتى ترد الجندى الى مكانه . وثمة صورة أخرى من تدخل الولاة يرويها الكندى عند حديثه عن القاضى أبى خزيمة بن يزيد الرعينى وتدخل يزيد ابن حاتم فى أعماله [٢] . وكان ولاة مصر يحضرون القضاة

(١) الكندى : القضاة ص ٣٥٦

(٢) الكندى . القضاة ص ٣٦٧

الى مجالسهم كما يحضرون الفقهاء ، ولم يكن القضاة يستطيعون الامتناع عن ذلك الا عندما يكونون قد تولوا باختيار الخلفاء المباشر فيكتسبون الاستقلال فى الرأى ، ولا يستطيع الولاة أن يتدخلوا فى شأنهم فقد رفض القاضى محمد ابن مسروق الذى ولى من قبل هارون سنة ١٧٧ هـ حضور مجلس الوالى .

ونستطيع من خلال روايات الكندى أن نعطى صورة للحياة الخاصة لهؤلاء القضاة ، فهناك اشارات الى الرواتب التى كانوا يتقاضونها ومنها يتبين أن الأمويين بالغوا فى رواتب القضاة وأجزلوا لهم العطاء فقد كان القاضى عبد الرحمن بن حجيرة [١] رزقه فى السنة من القضاء مائتى دينار ومن القصص مائتى دينار ، ومن بيت المال مائتى دينار ، وعطاؤه مائتى دينار ، وجائزته مائتى دينار ، وبلغ مجموع رواتبه فى السنة ألف دينار . وكانوا يتلقون الهبات اما من الخلفاء أو كبار رجال الدولة فقد كان الحجاج بن يوسف يبعث فى كل سنة الى مالك ابن شراحيل بحلة وثلاثة آلاف درهم [٢] .

وقد أورد الكندى [٣] نصا هاما عبارة عن براءة صرف الرواتب لأحد القضاة « قال أهل أبى سالم الجيشانى أنهم من

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣١٤
(٢) الكندى : القضاة ص ٣٢٠
(٣) الكندى : القضاة ص ٣٥٤

معافر ، وفيما وجدت فى ديوان بنى أمية براءة زمن مروان بن محمد فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، عن عيسى بن عطاء الى خزانة بيت المال فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة احدى وثلاثين ومائة عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة ، وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١ هـ) .

ويبدو أن رواتب القضاة فى العصر العباسى قد تضاعفت بعض الشىء ، فقد كان رزق القاضى عبد الله بن لهيعة الذى ولى القضاء سنة ١٥٥ هـ فى عهد أبى جعفر المنصور ثلاثين دينارا كل شهر ، وبلغ مجموع رواتبه فى السنة ٣٦٠ ديناراً [١] ، ويبدو أن هذا تقليد استمر بعد المنصور . فها هو الخليفة يجرى على القاضى المفضل بن فضالة القتبانى نفس هذه الرواتب الى أن كانت ولاية عبد الله بن طاهر ، فازدادت رواتب القضاة زيادة كبيرة حقا [٢] . فقد أجرى على القاضى عيسى بن المنكدر سنة ٢١٢ هـ سبعة دنانير كل يوم . ويبدو أن هذا التقليد استمر من بعده . فالكندى يقول : « فجرت فى القضاء الى اليوم » ، ولم يكن القضاة يمنعون عن أن يمارسوا حرفاً أخرى اما التماسا لمزيد من كسب أو حرصا

(١) الكندى : القضاة ص ٣٦٨

(٢) الكندى : القضاة ص ٤٣٥

على مباشرة العمل اليدوى التماسا للثواب . فكان القاضى خير بن نعيم يتجر بالزيت ليطعم عياله ، ومعنى هذا أن الرواتب التى أشرنا اليها لم تكن كافية مثلا ليعيش القاضى بالمستوى الذى يريـد . وروى الكنـدى [1] أن القـاضى أبا خـزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى الذى ولى القضاء فى شهر رمضان سنة ١٤٤ هـ يعمل الأرسان وكان يعمل كل يوم رسنين ، واحد ينفق ثمنه على نفسه ، وآخـر يبعث بثمنه الى اخـوان له بالاسكندرية . كما اشتغل بعض القضاة مثل الفضل بن فضالة بجبر العظام . قال الكندى [2] ، « كان الفضل رجل صدق وكان يجبر اذا جاءه الرجل قد انكسرت يده جبرها » .

وكان بعض القضـاة فعلا يحبون حياة النسك والعبادة والتقشف وكان بعضهم يمتنع عن تولى القضـاء . فقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو « أن يجعل كعب بن ضنة على القضاء ، فأبى كعب أن يقبل القضاء . وكان بعضهم مقلا فى طعامه لا يأكل منه الا أقله » . قال ابراهيم بن شميط أتيت عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الأصغر وقد تغذى فقال : «أتتغذى ؟ فلت نعم . قال : أعيدى عليه الغذاء يا جارية ، فأتت بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء فقال : ابلل وكل فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز » . وبعضهم الآخر كان ينطلق

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٦٤

(٢) الكندى : القضاة ص ٣٨٧

فى حياته الخاصة معطيا لنفسه أطايب الحياة ما دام لا يأثم ولا يجور . فالقاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى الذى تولى القضاء سنة ١٨٥ هـ « كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة ويبرز كثيراً فى مجالسه ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريج وهذا به الدلال وهذا من جيد الفريض . ولم يكن بمصر مُسْمِعَة الا ركب اليها يسمع غناءها وربما يقوم ما انكسر عن غنائها ، ويرى ذلك من الدين » . وكان هـذا القاضى غاية فى التأنق فى حياته الخاصة « أتيت العمرى بعد قيامه من مجلس حكمه فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وهو مضطجع وقد ترجل وصـفر يديه وكحل عينيه واتشح بازار معصفر وأدهن بملاب وهو يضرب بأصـابع يديه بعضه على بعض » .

ويبدو أن القضاة ابتداء من العصر العباسى بدأوا يعنون باتخاذ زى خاص بهم يرتدوله فى مجالسهم العامة أو عند ذهابهم للقاء أمير أو خليفة ، فكان المفضل بن فضالة القتبانى [١] يتخذ عمامة سوداء على قلنسية طويلة أو يلبسون كساء أسود من صوف .

ونكاد نلمح مما ذكره الكندى أسلوبا خاصا اتخذه القضاة فى مباشرة سلطاتهم والنظر فى قضايا الناس . فقد كان القاضى يعقد مجالس القضـاء فى المسجد الجامع عادة . وكان بعضهم

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٧٧

يعقد مجلسه فى الشتاء فى مقدمة المسجد مستدبراً القبلة ، وأسند ظهره بجدار المسجد ويمنع المصلين من أن يقتربوا منه ، ويقوم الكتاب بالمباعدة بينه وبين الخصوم . واذا كان الصيف اتخذ مجلسه فى صحن الجامع وأسند ظهره للحائط الغربى ، وان كان هذا لم يمنع بعضهم من أن يقف فى الطريق ليقضى بين الناس ، كما فعل القاضى غـوث بن سـليمان [1] « حينمـا قدمت امرأة من الريف ، وغوث قاض فى محفـة فوافت غوثا عنـد السراجين رائحا الى المسجد فشكت اليه أمرها وأخبرته بحاجتها فنزل عن دابته فى حوانيت السراجين ولم يبلغ المسجد وكتب لها بحاجتها وركب الى المسجد » . واذا جلس القاضى فى مجلس القضاء ينادى من له حاجة بخصومة ، ويتقـدم له أصحاب القضايا ، وكثيراً ما يتقدم الشاكى بقضية مكتوبة ليرفعها الى القاضى ، أما اذا كان المتقاضين من أهل الذمة فقد كان القاضى يفصل فى قضاياهم على باب المسجد ، وبعضهم كانوا يجعلون لهذه القضايا يوما فى منازلهم .

وأول من أدخل المتخاصمين من أهل الذمة الى المسجد الجامع القاضى محمـد بن مسروق ، وظل القضـاة حتى سنة ١٧٧ هـ يحضرون الى المسجد الجامع وكاتبهم يحمل القضايا فى منديل الى أن كان القاضى محمد بن مسروق فكان أول من عمل له القمطر بمصر ، فكان يودعها أوراقه ثم يختمهـا فاذا جلس

(١) الكندى : القضاة ص ٣٧٤

للقضاء مرة أخرى أحضرها وقام بفضها بنفسه . وقد اتخذ القضاة خزانة خاصة أودعوها المسجد الجامع يودعون فيها أموال اليتامى وأموال من لا وارث لهم ، وكانت تسمى بالتابوت [1] . وكان القاضي العمري أول من عمل تابوت القضاة الذى كان فى بيت المال وأنفق عليه أربعة دنانير .

وبنمو سلطات القضاة وتنوع اختصاصاتهم وتعدد قضاياهم نما أعوان القاضي عدداً ووضحوا تخصصا ، فقد بدأ القضاة يختارون كتابا يعاونونهم فى انجاز أعمالهم فينظمون جلسات القضاء ويدونون الأحكام ويكتبونها ، وقد ينوبون عن القضاة اذا مرضوا . ويبدو أن يحيى بن ميمون الحضرمى الذى ولى القضاء قد اتخذ كاتبا له يدعى مغيث . ثم تطلبت أعمال القضاة استحداث وظيفة أخرى . فقد كان القضاء يعتمد فى المحل الأول على شهود الصدق وقد يكثر الشهود ويتعددون ، وقد يضطر القاضي الى أن يتأكد من حسن أخلاقهم وصدق ايمانهم وهو لا يستطيع بمفرده أن يفعل ذلك ، ومن ثم نشأت وظيفة صاحب المسائل الذى يستدعى الشهود ويسـأل عنهم ويتحرى عن سلوكهم . وكان المفضل بن فضالة الذى تولى القضاء سنة ١٧٤ هـ أول من اتخـذ صاحب مسـائل [1] ، واضطر بعض القضـاة بمعونة صاحب المسائل هـذا أن يخصصوا أقواما

---

(١) الكندى : القضاة ص ٤٠٥

لأداء الشهادة . وقد اختار المفضل بن فضالة عشرة رجال لأداء الشهادة ، ولما نمت القضايا وتعدد الشهود اضطر محمد بن مسروق بمعونة صاحب مسائله أن يدون أسماء الشهود فى كتاب مستقل قال الكندى [1] : « .. دون الشهود وأسقط سائر الناس وفعلت ذلك القضاة من بعده حتى اليوم » . ثم اضطر القضاة الى أن يستخدموا أكثر من شخص يتولون مسائلهم ، فلما ولى العمرى جعل أشهب بن عبد العزيز ويحيى ابن عبد الله بن حرملة ، ويحيى بن عبد الله بن كثير على مسائله « وأمرهم باقامة من عرف منه ستر وفضل » حتى كان العمرى هذا أكثر القضاة شهوداً ، وقد اتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحو مائة من الشهود .

ومبالغة فى الدقة والتثبت من عدالة الشهود أمر القاضى أبا الأسود البصرى صاحب مسائله أن يجدد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة فى كل ستة أشهر على أن يستبعد منهم من سبق تجريحه أو الطعن فيه . بل عمد بعض القضاة مبالة منهم فى تحرى الدقة فى موضوع الشهود والشهادة مثل القاضى عيسى ابن المنكدر الى أن جعل صاحب المسائل يسير متنكراً بالليل يغطى رأسه ويمشى فى السكك يسأل عن الشهود ، « وقد رآه غير واحد من الثقـاة وتحدثوا بذلك عنه » ، وعندما نشأت مشكلة خلق القرآن زمن المأمون كان القاضى يسأل الشهود

---

(1) الكندى : القضاة ص ٣٩٤

عن القرآن فاذا أقر أنه مخلوق قبل الشهادة ، وان رفض القول بذلك استبعد من الشهادة .

ويلقى الكندى أضواء طريفة على اختصاص القضاة وتطور هذه الاختصاصات وتنوعها منذ الفتح العربى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فلم يكن القضاة يختصون بالفصل فى القضايا فحسب ، انما كانت توكل اليهم أمور أخرى ، فقد كانوا مثلا يجمعون بين القضاء والقصص ، فالقاضى سليم بن عتر الذى تولى القضاء زمن معاوية كان قاضى الجند زمن عمرو بن العاص وكان قد اشتغل بالقصص أيضا سنة ٣٩ هـ ، وكان عبد الرحمن بن حجيرة أيضا يجمع بين القضاء والقصص ، وخير بن نعيم الحضرمى من قبل حنظلة بن صفوان الكلبى فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٠ هـ ، جمع بين القضاء والقصص . وعهد الى القاضى فى العصر الأموى بواجبات أخرى فقد وكل اليه النظر فى الجراح وفرض الدية أو القصاص ، قال الكندى : « كتب معاوية بن أبى سفيان الى القاضى سليم بن عتر يأمره بالنظر فى الجراح وأن يرفع ذلك الى صاحب « الديوان » ، وكان سليم أول قاض نظر فى الجراح وحكم بها ، وكان الرجل اذا أصيب وجرح أتى القاضى وأحضر بينة على الذى جرحه فيكتب القاضى بذلك الجرح قصة على عاقله الجارح ويرفعها الى صاحب الديوان فاذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح وينجم ذلك فى ثلاث سنين [1] .

---

(١) الكندى : القضاة ص ٣٠٩

وفى بعض الأحيان كان يعهد الى بعض القضاة بتولى بيت المـال والنظر فيه . وفى العصر الأموى أيضا أعطى القضـاء اختصاصا جديداً وهو تدوين الجند فى الديوان وتقدير العطاء المستحق لهم ، فكان القاضى عابس بن سعيد الذى تولى القضاء زمن مروان بن الحكم يفرض العطاء أو يزيد منه . ولما دخل العباسيون مصر بقيادة صالح بن على العباسى رأوا أن ديوان الجند قد اضطربت أموره فى زمن الفتنة ، فعهدوا الى القاضى حوثرة بن سهل أن ينظر فى الديوان وأن يصلح الخلل الذى طرأ عليه . بل شاعت فى العصر الأموى ظاهرة الجمع بين القضاء والشرط فكان عباس بن سعيد أول من جمع له القضاء والشرط ، بل نجد أن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى ولى القضاء سنة ٨٧ هـ يجمع بين القضاء والشرط وخلافة الفسطاط ، كما أضيفت الى بعضهم مهمة النظر فى أهـراء القمح ، فقد كان عياض بن عبد الله الأزدى عاملا لأسامة بن زيد على الهرى فاتته ولاية القضاء من قبل سليمان بن عبد الملك ، فقال أسامة : لا أعـزلك عن الهـرى للقضاء أنت عليهما جميعـا ، وكان يجـرى عليه رزقهما . وأصبـح من اختصاص القـاضى فى العصر العبـاسى رؤية هـلال رمضـان ، والتحقـق من بداية شهر الصوم . وقد حدث ذلك ابتداء من عام ١٥٥ هـ ، وفى عهد القاضى عبد الله بن لهيعة « طلب الناس هـلال شهر

---

(١) الكندى القضاة : ص ٣٣٣

رمضان وابن لهيعة على القضاء ، فلم ير وأتى رجلان فزعما أنهما قد رأياه ، فبعث بهما الأمير موسى بن على بن رباح الى ابن لهيعة فسأله عن عدالتهما فلم يعرفا واختلف الناس وشكوا ، فلما كان فى العام المقبل خرج عبد الله بن لهيعة فى نفر من أهل المجلس تعرفوا بالصلاح فطلبوا الهلال فكانوا يطلبونه بالجيزة فهو أول القضاة حضر فى طلب الهلال . ثم تعدوا الجسر فى زمن هشام بن أبى بكر البكرى ، وطلب الهلال فى جنان بن أبى حبشى . ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان ابن أبى الليث فطلبه فى أصل المقطم » [1] .

وفى سنة ١١٨ هـ على وجه التحديد أصبح من اختصاص القضاة النظر فى الأحباس ، فقد كانت الأحباس فى أيدى أهلها قبل ذلك وفى أيدى أوصيائهم ، فلما تولى القضاء ثوبة بن محمد الحضرمى قال : « ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من التواء والتوارث فلم يمت ثوبة حتى صار الأحباس ديوانا عظيما وذلك فى سنة ١١٨ » . وكان القاضى أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى الذى ولى القضاء سنة ١٧٠ هـ يتفقد الأحباس بنفسه ثلاثة أيام كل شهر ، يأمر بمرمتها واصلاحها وكنس ترابها ومعه طائفة من عمال عليها ، فان رأى خللا فى شىء منها ضرب المتولى عشر جلدات ، وكان القاضى العمرى من أشد الناس لعمارة

(١) الكندى : القضاة ص ٣٧٠

الأحباس ، كان يقف عليهـا بنفسه ويجلس مع البنـائين كل نهاره . ومما ينسب الى القاضى لهيعة بن عيسى (١٩٩ هـ) أنه قضى فى أحباس مصر كلها ، فلم يبق منها حبسا حتى حكم فيه ، اما بنية تثبت عنده واما باقرار أهل الحبس .

ثم عهد الى القضاة أيضا النظر فى أموال اليتامى وقد حدث ذلك فى عهد عبد الرحمن بن معاوية بن حديج القاضى سنة ٨٧هـ اذ كان أول من نظر فى أموال اليتامى وضمن عريف كل قبيلة أموال اليتامى فيها ودون ذلك فى سجل احتفظ به فأصبح ذلك تقليدا سار عليه القضاة من بعده . واهتمت الدولة العباسية بأموال اليتامى اهتماما أكبر ، وبدأت تكسب هذا الموضوع طابعا رسميا فأمر أبو جعفر المنصور بادخال أموال اليتامى بيت المال ، وكان ذلك فى عهد القاضى خير بن نعيم : « فأوردها خير بن نعيم بيت المال وسجل فى كل مال منها سجلا بما يدخل منهـا وما يخـرج » [1] . وأضـيفت اليها أمـوال الغيب فى عهد الرشـيد ، كما أضيف الى القضـاة التصرف فى أموال السـبيل . قال الـكندى : « كانت مواحـيز مصر يعمـرها أهل الديوان وطائفة من المطوعة ، وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة فاذا كان شهر أبيب من شهور القبط بعث القاضى لما اجتمع من أموال السـبيل ففرقت فى مواحيز مصر من العريش الى لوبية . فلما هاجت الفتنة أيام خلع

(١) الكندى : القضاة ص ٣٥٥

محمد الأمين تشاغل السلطان عن عطاء أهل الديوان وتعطلت المواحيز وانقطع عنها المطوعة ، فلما ولى لهيعة بن عيسى الحضرمى سنة ١٩٦ هـ جمع أموال السبيل التى من الأحباس ففرض منها فروضا من أهل مصر وجعل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز وأجــرى عليهم العطاء من الأحباس فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة فصارت سنة بعد لهيعة » [1] .

ثم وضح للقضاة اختصاص غريب لم يكن لهم من قبل ففى سنة ١٩٥ هـ أصبح من واجب القــاضى التحقق من الأنساب واثباتها فقــد كان بعض العرب يتحرشــون بأهل الحرس من المسلمين الجدد ويؤذونهم ويطعنون فى أنســابهم فأرادوا أن يسجل لهم سجل باثبات أنسابهم . وقد رفض القاضى العمرى أن يفعل ذلك أول الأمر الى أن ورد اليه كتاب محمــد الأمين بتسجيل أنساب هؤلاء الناس ، فدعاهم العمرى الى اقامة البينة عنده على أنسابهم فأتوا بأهل الحوف الشرقى وأهل الشرقية وقدموا جماعة من بادية الشام فشهدوا أنهم عرب فسجل لهم العمرى وثبتت أنسابهم الى حوتكة . وقد شاعت فى ذلك الوقت ظاهــرة تزييف ســجلات الأنســاب والتزوير فيهــا ، قال الكندى [2] : « أقر عنــدى عبد الكريم القــراطيسى ، وكان يضع على الخطوط نظيرها ، أنه وضع قضية زورها على لسان الفضل باثبات أنساب أهــل الحرس الى حوتكة وأنه أخذ فى

---

(١) الكندى : القضاة ص ٤١٨

(٢) الكندى : القضاة ص ٣٩٨

وضعها من أبى كنانة وأبى حكيم ألف دينار وأن المتولى ديوان الفضل دفع اليه ألف دينار حتى جعلها فى الديوان » .

وأضيف الى القضاء كذلك النظر فى قضايا أهل الذمة ، وكان القاضى خير بن نعيم يقضى فى المجلس بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى . وكان محمد ابن مسروق أول من أدخل أهل الذمة الى المسجد للفصل فى قضاياهم ، وقد تجمعت سلطات القضاء كلها فى القاضى الحارث ابن مسكين (٢٣٧ــ٢٤٥ هـ) « أمر باخراج أصحاب أبى حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعى وأمر بنزع حصرهم ، ومنع عامة المؤذنين من الأذان ومنع قريشا والأنصار أن يدفع اليهم من نفقة رمضان شىء ، وأمر بعمارة المسجد الجامع وحفر خليج الاسكندرية ونهى عن تقبيل المصايد فأصبحت للناس ومنع من النداء على الجنائز ومنع القراء الذين يقرأون القرآن بالألحان وكشف أمر المصاحف التى بالمسجد الجامع وولى عليها أمينا من قبله وترك تلقى الولاة والسلام عليهم وضرب الحد فى سب عائشة أم المؤمنين » [1] .

ويعطينا الكندى معلومات طريفة عن كيفية وضع الأحكام وصياغتها واصدارها فيذكر أن القاضى سليم بن عتر الذى ولى القضاء زمن معاوية أول من اتخذ حكما مسجلا مكتوبا . فقد اختصم اليه فى ميراث فقضى بين الورثة ثم اختصموا فعادوا

---

(١) الكندى : القضاة ص ٤٦٩

اليه مرة أخرى فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند . وكانت هذه الأحكام المكتوبة تؤرخ تاريخا دقيقا وتمهر بامضاء القاضي . يذكر الكندى فى معرض كلامه عن القاضى عابس بن سعيد ما نصه : « رأيت له قضية عند آل قيس ابن زبيد الخولانى تاريخها شهر رمضان سنة ٧٠ هـ » . وقد أمدنا الكندى أيضا بمعلومات طريفة عن طريقة اعداد الحكم فى قضية من القضايا فقد كان الكاتب يدون « محضرا » بما يجرى فى مجلس القاضى ثم يرفعه للقاضى للنظر فيه وقد يؤجل القاضى النظر فيه يوما أو يومين وهو يراجعه ، ويشير الى أقوال الفقهاء ويؤشر على النواحى الهامة فيه فاذا فرغ من ذلك كان على الكاتب أن ينسخ الحكم ويتولى تسجيله . قال الكندى [1] : « ما صحبت أحدا من القضاة كابراهيم بن الجراح كنت اذا عملت له المحضر وقرأته عليه أقام عنده ما شاء الله أن يقيم حتى ينظر فيه ويرى رأيه ، فاذا أراد أن يقضى به دفعه لى لأنشىء منه سجلا فأجد فى ظهره : قال أبو حنيفة كذا ، وفى سطر : قال ابن أبى ليلى كذا ، وفى سطر آخر : وقال أبو يوسف كذا ، وقال مالك كذا ، ثم أجد على سطر منها علامة له كالخطة فأعلم أن اختياره وقع على ذلك القول فأنشىء السجل عليه » .

وقد ذكر الكندى نصا له أهمية تاريخية بالغة فقد نقل نصا لحكم صادر فى قضية من قضايا العصر وهو متعلق بمسجد

---

(١) الكندى : القضاة ص ٤٣٢

عبد الله بن عمر بن الخطاب . وكان قد ظهرت عليه علامات البلى والقدم فأمر القاضي عبدالرحمن بن عبد الله العمرى سنة ١٨٥ هـ ببناء المسجد ورصد له مبلغ ألف دينار تؤخذ من وصية أبى نمر عم محفوظ بن سليمان ، وكان قد توفى فى ذلك الوقت ، فتم البناء وجعلت له حوانيت تغل ايرادا ينفق عليه ، وكتب قضية بذلك هذا نصـــها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هـــذا كتاب أمر به القاضى عبد الرحمن بن عبد الله وهو يومئذ يلى القضاء بين أهل مصر فى صفر سنة ١٨٨ هـ بما ثبت عنده فى المسجد الذى يقال له مسجد عبد الله الذى بالظاهرة قبليه الطريق الأعظم الى المسجد الجامع ، وبحريه الطريق الذى يسلك الى سوق بربر ، وشرقيه السويقة التى يقال لها سويقة مسجد عبد الله على طريق الموقف ، وغربيه الطريق الذى يسلك منه على الجب الذى يقال له جب عبد الله . وحين رفع الى القاضى عبد الرحمن بن عبد الله نفر من جيرة هذا المسجد أن هذا المسجد قد رث وخيف عليه الانكسار خشبه وسقفه واحتاج الى العمارة والمرمة وأنهم قد وجدوا من احتسب فى اصلاحه وبنائه وتصيير حوانيت تحته فى حقـــوقه لتكون غلتها فى مرمة ما تهدم منه وفى زينتـــه وحصره وأجر مؤذنيه وشأنه كله ، فسألوا القاضى عبد الرحمن بن عبد الله أن يأذن لهم فى ذلك فدعاهم بالبينة على ما ذكروا فأقاموا بينة عدولا عنده وقبل شهادتهم فشهدوا عند القاضى عبد الرحمن بن عبد الله أن هذا المسجد الموصوف فى صدر هذا الكتاب خيف على سقفه

من قبل خشبه واحتاج الى العمارة والمرمة فى جدره وأن اجنحته التى حوله وما تحت هذا المسجد ليس لأحد فيه حق وأن الذى طلب من عمارته وبنائه واصلاحه وتصيير حوانيت تحته فى حقوفه ومرمته ما استرم منه وفى زيته وحصره وأجر مؤذنه وغير ذلك من نوائبه منفعة للمسلمين ممن صلى فيه وأن ذلك ليس بضرر على أحد : وبعث القاضى عبد الرحمن بن عبد الله نفرا ممن يثق بهم فنظروا الى المسجد الموصوف فى هذا الكتاب فرفعوا اليه مثل الذى شهد به الشهود فى هذا الكتاب ، فلما ثبت عند القاضى ذلك رأى أن يأذن فى عمارة هذا المسجد الذى وصف فى هذا الكتاب وبنيانه واصلاحه وتصيير الحوانيت التى أرادوها تحته فى حقوفه لتكون غلتها فى مرمته اذا احتاج اليها ولما يعلمه فى زيته وحصره وأجر مؤذنه وغير ذلك من شأنه ويكون فضلا ان فضل من غلتها فى وجوه الخير . ورفع الى القاضى عبد الرحمن بن عبد الله أن هذا المسجد الموصوف فى هذا الكتاب قد أصلح وفرغ من بنيانه وحوانيته وأتوا بشهود يقال لهم : عبد الرحمن بن سعيد وعمرو بن اسماعيل بن عمر الأيلى ومحمد بن سليمان بن محمد فشهدوا عند القاضى عبد الرحمن بن عبد الله أن هذا المسجد الموصوف فى هذا الكتاب كان يخاف على سقفه من قبل خشبه واحتاج الى العمارة والرمة فى جدره ، وأن كل ما كان تحت هذا المسجد وما فوقه والثلاثة الأجنحة التى كانت حوله ملصقة به أن ذلك كله من حق هذا المسجد وحدوده ليس لأحد فيه حق ولا دعوى

ولا طلبة بوجه من الوجوه وأن المجالس التى كانت حول المسجد خارجة منه كان يؤدى من يجلس فيها الكراء الى من يقوم ببناء هذا المسجد أنها على حالها لم تدخل فى المسجد ولا فى حوانيته : وعدل الشهود عند القاضى عبد الرحمن بن عبد الله فقبل شهادتهم . وسأل القاضى عبد الرحمن بن عبد الله من حضره من جيرة هذا المسجد الموصوف فى هذا الكتاب أن يكتب لهم ما يثبت عنده فيه كتبا يضعها عند من يرى ليكون ذلك حجة وقوة وأن يولى القيام بها رجلا من أهل الثقة : فولى القاضى عبد الرحمن بن عبد الله السكن بن أبى السكن القرشى القيام بأمر هذا المسجد الموصوف فى هذا الكتاب واكراء حوانيته وأن ينفق من كرائها ما رأى فى زيته وحصره وأجر مؤذنيه وما يحتاج اليه فى أمره كله وينفق بقية ان بقيت من كرائه حيث رأى من وجوه الخير وجعله فى ذلك أمينا وأمره بتقوى الله وطاعته والعمل فى ذلك بحق الله عليه . وأنفذ القاضى عبد الرحمن بن عبد الله أن يكتب هذا الكتاب نسخا تكون وثيقة فى هذا المسجد الموصوف فى هذا الكتاب ، فكتب ودفع منها كتابا الى عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشى ، وكتابا الى حجاج بن سليمان الحميرى ، وكتابا الى ربيعة بن الوليد الحضرمى ، وكتابا الى شعيب بن الليث بن سعد الفهمى ، وكتابا الى أبى رجب العلاء ابن عاصم الخولانى ، وكتابا الى عمرو بن يزيد الفارسى ، وكتابا الى أبى زرارة الليث بن عاصم القتبانى ، وكتابا الى عبد الصمد ابن سعيد الأنصارى ، وكتابا الى محمد بن سليمان بن فليح ،

وكتابا الى الأشقر عبد الملك بن سالم ، وكتابا الى السكن بن أبى السكن المقيم بهذا المسجد ، وكتابا الى محمد بن سليمان بن محمد بن عبيد ، وكتابا الى ديوان القاضى عبد الرحمن بن عبد الله . وأشهد القاضى عبد الرحمن بن عبد الله الشهود المسمين فى هذا الكتاب أنه ثبت عنده ما فى هذا الكتاب وأمر به وأنفذه على ما سمى وفسر فيه ، وذلك فى صفر سنة ثمان وثمانين ومائة » .

ولم يكن قضاة مصر معزولين عن الأحداث السياسية الهامة التى كانت تقع فى أيامهم ، فقد كانوا يشتركون فى حملات الجهاد والغزو فقد اشترك سليم بن عتر فى بعث فى البحر زمن معاوية والقاضى مالك بن شراحيل الذى ولى القضاء سنة ٨٣ — ٨٤ هـ عقد له عبد العزيز بن مروان على حملة ابن الزبير ، أما القاضى غوث بن سليمان الحضرمى الذى ولى القضاء فى ١٥ رمضان سنة ١٣٥ هـ كان يخرج على الصائفة ، وقد خرج فى غزوه نحوا من خمس مرات .

الفهــرس

صفحة

القسم الأول ـ الكندى المؤرخ

القسم الثـانى

أعلام العرب

تصدرها الدار المصرية للتاليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر — ٣ شارع كامل صدقى

تظهر تباعاً كل يوم ٧ من كل شهر

ظهر منها :

١ — محمد عبده . . . . . الأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — المعتمد بن عباد . . . . الأستاذ على أدهم
٣ — جابر بن حيان . . . . الدكتور زكى نجيب محمود
٤ — عبد الرحمن بن خلدون . الدكتور على عبد الواحد وافى
٥ — ابن تيمـــية . . . . . الدكتور محمد يوسف موسى
٦ — معـــاوية . . . . . . الأستاذ ابراهيم الابيارى
٧ — سيد درويش . . . . . الدكتور محمود أحمد الحفنى
٨ — عبد القاهر الجرجانى . . الدكتور احمد احمد بدوى
٩ — عبد الله النديم . . . . الدكتور على الحديدى
١٠ — عبد الملك بن مروان . . الدكتور ضياء الدين الريس
١١ — مالك . . . . الأستاذ امين الخولى
١٢ — القلقشندى . . . . . الدكتور عبد اللطيف حمزة
١٣ — الطبرى . . . . . . الدكتور أحمد محمد الحوفى
١٤ — الظاهر بيبرس . . . . الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ — ابن الفارض . . . . . الدكتور محمد مصطفى حلمى
١٦ — المختـــار الثقفى . . . الدكتور على حسنى الخربوطلى

١٧ ـ الوليد بن عبد الملك . .	الأستاذ احمد الشرباصى
١٨ ـ الأصمعى	الدكتور احمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	الأستاذ صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	الدكتور ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
٢٢ ـ ابن قتيبة	الدكتور عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	الأستاذ محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى . .	الدكتور جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى
٢٦ ـ الصاحب بن عباد . . .	الدكتور بدوى طبانة
٢٨ ـ الناصر محمد بن قلاوون .	الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	الأستاذ أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	الدكتور سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى .	العقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى . .	الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات
٣٣ ـ رشيد رضا الامام المجاهد .	الدكتور ابراهيم احمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الوصلى . . .	الدكتور محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى . .	الدكتور زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى . . .	الدكتور أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	الدكتور ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العلاء المعرى . . .	الدكتورة عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد . . .	الدكتور حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجـويلى	الدكتورة فوقية حسين حمود
٤١ ـ الناصر صلاح الدين . .	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير . . .	الدكتور على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش . . .	الأستاذ أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق	الأستاذ عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات .	الأستاذ محمود الهجرسى

٤٧ – حفنى ناصف . . . . الأستاذ محمود غنيم
٤٨ – احمد بن طولون . . . للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ – محمود حمدى الفلكى . للأستاذ احمد سعيد الدمرداش
٥٠ – احمد فارس الشدياق . للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٥١ – المهدى العباسى . . . للدكتور على حسنى الخربوطلى
٥٢ – الأشرف قانصوه الغورى . الدكتور محمود رزق سليم
٥٣ – رفاعة الطهطاوى . . . الدكتور حسين فوزى النجار
٥٤ – زرياب : أبو الحسن على بن نافع
(موسيقار الأندلس) . . الدكتور محمود احمد الحفنى